

www.kotobarabia.com
رواية
السمان يهاجر شرقاً
www.kotobarabia.com
السيد نجم

السمان
يهاجر شرقاً

روايـــة

السيد نجم

فهرس

العصفور لا يغرد ولا يبكي

التففنا حول الترانزيستور لسماع بيان المفتـي، علـت صرخة بين الأرجاء – مست جرميت تحت الأرض رقم ٥– غدا الأوَل من رمضان؛ تبادلنا التهنئة داعين ا بصدق:

"ربنا لا يعوده علينا ونحن هنا"!

قاطني كل الملاجئ اجتمعوا معا لتجهيز سحور اليـوم الأول للصيام، عن نفسي اكتفيت بالخروج من الملجأ؛ لأدخن سيجارة وحدي. لا أعرف بالتحديد في الدنيا شـيئًا يسـتحق أن يجعلني لا أعترض على ما أنا فيه الآن في تهوُع سـني التجنيد، تلك التي طالت وبلا أمل في الخروج إلى الدنيا.

كل ما يشغلني الآن... كيف أقضـي رابـع رمضـان لي مجندا ولا جديد ؟. أصبحت في شك أن القيادة ستصـدر أمرا بالقتال على أية صورة من بعد. ريح هوجاء لطمتنـي بغتة. وزني منذ وصولي تلك الوحدة – المستشفى الجراحـي الميداني تحت الأرض رقم ٥ – زاد تسعة كيلـو جرامـات، خلال تلك الفترة التي لا هي حرب ولا سلم، ومنـذ إلحـاقي

عليها من كتيبة المدفعية التي عايشت فيها آخر شهور حرب الاستنزاف المريرة.

تأكدت من عجزي عن التفكير في المسـتقبل القريـب والبعيد وقد استقرَ بي المقام في ملجأ يضم رقباء طبيـين... كما عجزت من قبل. كلما حدثت رفقائي... هارون الهـادي، صلاح مسيحة، محمد نوفل... بشأن حبيبتي وموقف أهلهـا مني:

"إنهم يرفضون الصبر حتى ينتهي تجنيدي، ويرفضـون قبولي زوجا لابنتهم، وأنا المجند، ما رأيكـم أرشـدوني ؟". كانت فرصة لصلاح أن يسمعنا عنوة وبافتخـار مغامراتـه النسائية التي لا تنتهي أو هي التي بلا بداية وبلا نهاية، فهو السوهاجي خريج جامعة الإسكندرية والمقيم فـي القـاهرة. له في كل موقع منها قصص ومغامرات تكفـي أن تسـري عنا ليالينا الطويلة المملة المتشابهة... يقول ويؤكـد بلهجتـه الصعيدية حاسما:

"أنا حللتها مع نفسي، تسعون في المائة مـن المشـكلة جنس، اسمع يا طارق، تستطيع زيارتي في الإجازة القادمـة وأحل مشكلتك، عندي كل طلباتك".

أما هارون السكندري المولد والمقام، الهـادئ المتـزن التفكير، قال:"أنا حللتها برفض الفكرة أصلاً... يا صديقي من الجنون أن نفكر مجرد التفكير في الزواج، صدقني". يومهـا كشف لنا نوفل عما كنـا نجهلـه عنـه:"صـدقوني أنـتم، ما نحن فيه الآن، أعايشه منذ ٦٧ وما قبلها".

يقاطعه صلاح:"نكشت فيلسوف عصره، أنـت الجـاني علـى نفسـك، أمـا أنـا لا أتحمـل الفلسـفة، تشـربون الشاي معي ؟".

وافقناه، طلبنا من نوفل أن يتابع. كـان أنشـط أفـراد منظمة الشباب الاشتراكي حتى نال دوراتها المتقدمة إلا أنـه أثناء مظاهرات الطلبة عـام ٦٨ أعلـن معهـم اعتراضـه على وسائل الجهات الأمنية في معالجة المظـاهرات التـي سألت: "من المسئول عن النكسة ؟"اعتقلوه. رفيقة المنظمـة وقفت بجواره وهو داخل المعتقل وخارجه؛ فتزوَجها، ليلتهـا عرفنا الخبر لأول مرة. ما كان من صلاح الذي ترك الشاي يغلي إلا الصراخ:

"هل أنت متزوج حقًا ؟"

"نعم"

"ألا تخشى الموت وترميل زوجتك ؟"

"ولا أخشى على ابنتي من اليتم".

بالرغم من كل شيء فرحت يومهـا بنوفـل. عـاودت المحاولة مع حبيبتي، طالبتها أن تتخذ موقفًا متشددا مع أهلها، ولما لم تبدِ موقفًا... قبولاً أو رفضا، قلـت لنفسـي:"كيـف ستصلح زوجة لي إذن؟!" بعدها قلت يجب علـيَّ أن أعيـد حساباتي كما تعلمت من القـذف المـدفعي أثنـاء تواجـدي مع كتيبة المدفعية.

أشعر أن الغضب والكراهية ينهشـان قلبـي... كيـف يا ربي الخلاص ؟. لطمني هارون بغتة جعلني أنتبـه لـه، حضر وفي تلـك السـاعة المتـأخرة باسـتدعاء رسـمي له من الإجازة، لم يمهلني، لاحقني:

"ماذا حدث ؟ الدنيا انقلبت، استدعائي من الإجازة وكأنني سأحرر سيناء غدا !!".

"لســت وحــدك، تــم اســتدعاء كــل الأفــراد من الإجازات"..."لكن يا طارق لفت نظري تحرُكات مكثفـة على طول الطريق إلى السويس"..."المهم الآن كل سنة وأنت طيب... تعال". دخلنا الملجـأ لنجـد الرقيـب أول "عطيـة

أبو شنب"مع نوفل وصلاح يضحكون، وهو ما يحدث دومـا إذا ما حط أبو شنب في أي مكان، شـاركناهم فـي شـرب الشاي، حتى كان سؤال هارون – الرائق – كما نسميه:

"قل لي يا أبـو شـنب، كيـف ترعـى شـنبك هـذا؟ "لم يمهله صلاح قال:"أكيد وأنت في حضن امرأتك".

أما أبو شنب فقـال شـاردا بصـوت محايـد:"أرعـاه في كل وقت ومع كل المواقف... إلا أيام ٦٧"؛ شعر بتشوقنا للاستماع، تعمد الصمت. لم يعاود الحديث إلا بعـد إلحـاح منا وخاصة من صلاح الذي يسخر منه دوما، فقال:

- "طائرات العدو حسمت المعركة ولعلها الحرب كلهـا خلال ساعات قليلة في الخامس مـن يونيـه، كُتِـب علـيَّ وعلى أفراد وحدتي الأحياء التيه في صحراء سيناء، لم نذق جرعة ماء حتى تشققت الشفاه، لما تورمت الأقـدام خلعنـا الحذاء الميري، وجدنا أنفسنا على مقربة من الطريق الأسود الإسفلتي، يا له من لون رائع مطمئن جميل ذلك اللون الأسود في الصحراء، وسط الصفرة؛ ربمـا لأنـه يعنـي الحيـاة أو الطريق إليها.

تقدّمت نحونا سيارة جيب صغيرة، أحد الجنود ألقى إلينا بزمزمية بها مياه مثلجة، ميـاه ومثلجـة، لأنـاس عطشـى في صحراء... تخيلها؟! لا أدري مـن أيـن واتتنـا القـوة حتى نتصارع عليها، ليضحكوا علينا وليتضـح لنـا أنهـم من الأعداء... تخيلوا هـذه أيضـا. أخـذونا إلـى معتقـل الأسرى... كنا نسـتيقظ فـي الخامسـة صـباحا، وننـام في الخامسة مساء بالأمر، نقضي الوقت في الأعمال الحقيرة ومع تعمد سوء المعاملة، انتشر القمل والأمـراض الجلديـة فينا، لا أنسى فكرتهم الخبيثة، أن نستيقظ صباحا على صوت أم كلثوم تغني "فات الميعاد" ، وعلى صوتها ننام وهي تغني "على بلد المحبوب وديني"!!.

لم يحاول "أبو شنب" الإجابة على أية أسـئلة وجِهـت إليه بالرغم من محاولاتنا معه، تابع:"وقتها لم أهتم بشاربي... ترهل... وقتها أيضا كنت أبكي".

القلق والحزن أغرقا الملجأ فـي غمـوض المجهـول، وحاولنا الحديث لكن بنغمة أقل حزنًا. لم يعودنا أبـو شـنب على ذلك... قال نوفل:

"لا تحزن يا أبو شنب... لولا الضباب عـام ٧١ كنـا عبرنا، ثم كـان عـام الحسـم، وفعـلاً تـمَ الحسـم لكـن علينا نحن !!". تابع صلاح، تكلم بهدوء غريب عليه وعلينا: "عندي لك فكرة، هنا الوحدة تقع بين تبتـين أقتـرح عليـك أن تنقل إحداها مكان الأخرى... عموما اليمنى أصغر قليلاً"! لحقنا هارون الرائق:

"ولكن لا تنس أن مجموعة "الحية"– مجموعة صواريخ سام ٧ – يحضرون مع أول ضوء ويختفون مع آخر ضوء، عليك بتنفيذ المهمة خلال فترة الليل وإلا تاهوا وتصبح مشكلة عسكرية أمنية". حسمت سخريتهم أخيرا بضـرورة التفكيـر فيما سنتناوله في السحور، وبالفعل شُغِلْنا بالموضوع كثيرا.

عاد هارون يلحُ ويؤكد عما في رأسـه: "يـا جماعـة رمضان هذا العالم مختلف، هذا خامس رمضان لـي وأنـا في الجيش، استدعاء الأفراد من الإجازة، التحرُكـات التـي شاهدتها على طول الطريق إلى هنا. الظاهر نبـوءة نـاجي ستتحقق".

بلا اهتمام سأله صلاح:

- "وماذا في نبوءة ناجي ؟!"زميلنا نـاجي منـذ أكثـر من شهرين يعلن بشكل خفي، يسرُ به إلى أذن من يثق فـيهم وهارون أحدهم... ما يؤكد أنه سيتحقق خلال شهر أكتـوبر. أخبرنا هارون أن الرجل يتنبأ باندلاع الحرب خـلال شـهر أكتوبر ويصرُ على رأيه، عندما سأله ولماذا ذلك الشـهر؟!! يردُ عليه ببساطة:"لأنني كثيرا مـا أخطـئ وأؤرخ أرانيـك الجنود وأية أوراق أوقعها بهذا الشـهر؟!". فكانـت فرصـة أن نتذكر زميلنا ونوادره، نضحك وربما لنسـتولد الضـحك استيلادا لعله يسري عما في رءوسنا !!!.

عاد صلاح يذكرنا بأول ما تحدَثنا فيـه، بـدأ يشـعل سيجارة جديدة:"لا تنسوا، وصلتنا تعليمـات اسـتكمال كـل النواقص من الأدوية والأجهزة والمعدات اللازمـة لتشـغيل المستشفى، كل الدشم الخمس وبكامل طاقتهـا. نعتبـر أول مستشفي جراحي عسكري بعد القناة. تـذكرت مـا علمتـه في الصباح ولم أعره اهتمامي، أخبرتهم:"بالمناسـبة علمـت بوصول إشارة تتضمن أسماء عدد كبير من الأطباء المكلفين المفروض إلحاقهم على المستشفى وقت الحرب من المدنيين

وأعضاء هيئة التـدريس بكليـات الطـب". أكـد صـلاح على كليهما:

- "أنا عندي تعليمات بالتوجه إلى المستودع الطبي غدا؛ لاستلام التجهيزات والمعدات المتبقية، كذلك ما يلزم لتفـادي الحرب الكيماوية، وسوف نستلم بعض عربـات الإسـعاف لخدمة النقط الطبية التي تدخل في تشكيل إحداها يا طـارق، هذا هو عيب الحرب لو حدثت سوف تحرمنا من بعضنا !". علق نوفل بعد طول تفكير كعادته:

- "منذ ثلاثة أيام والدكتور فاروق قائد الكتيبـة يوميـا في مركز قيادة الفرقة ١٩، أكيد هناك تفاصيل كثيرة سـوف نعرفها منه". لم يكن أمامي حيلة كي أقنـع نفسـي بعكـس ما يقال أو بتصديقه... نفس حالتي ليلة سمعت طرقًا شـديدا على حوائط الملجأ يدغدغ أذني وأنا نائم في ليلتـي الأولـي بوحدة المدفعية التي ألحقت عليها، قبل وحدتي تلك... عندما شارك الفئران القاطنة معنا... فزعـت، تأملـت مؤشـري الساعة، كانت بعد الواحدة في ليلة شديدة البـرودة، وجـدت فيها أن للغباء وللبلادة لذة حتى جذبني وهدان حكمدار طـاقم المدفعية الذين قضيت معهم فتـرة خـدمتي هنـاك، عـاد

إليّ خصيصا كي يطمئنني ويرشدني فـي ليلتـي السـوداء تلك... أمرني بارتداء الحذاء ذي الرقبة الطويلـة وبوضـع الخوذة الحديدية فوق رأسي:"ارتدها حالاً... الحالة كاملـة". ولما لم أفهم، جذبني من يدي، ألقى الخوذة بنفسه على رأسي ودفعني أمامه آمرا:

- "اخرج بقدمك اليمني. اتلُ الشهادتين يـا وحـش... أفهمني أن التراشق يتجدد احتفاء بي بعد فترة راحة قصـيرة غير متفق عليها، ثم اختفى، حاولت متابعته... فشلت.

ارتميت إلى أول خندق صادفني، همسـت إلـى مـن بجواري، أحكمت ربط"الزنط"، ذلك نصف المعطف بغطـاء للرأس ثقيل والذي لم ينجح في نزع القشعريرة من جلـدي، نبهني رفيقي في الخندق أن أكف عن حركة ساقي العصـبية اللاإرادية. وجدت من الأفضل مصادقة ذلك الكائن المشغول عني، سألته:

-"ماذا تعني تلك الطلقات الحمراء هناك فـوق الضـفة الشرقية"؟ كرّرت سؤالي بإلحاح، نهرني أن أنتظره، تابعتـه بكل حواسي، وجدت في الانشغال به ميزة الهروب مما أنـا فيه، نجحت في استنتاج تفسـير مـا ! عرفـت أن الطلقـة

الحمراء تستتبع بسيل من الطلقات وبداية تراشـق مـدفعي، تعلمت أن للدانة ثلاثة أصـوات... قصـيرا عاليـا حـين الانطلاق، طويلاً حادا وهي تخترق أجواء المكان، ثم صوتًا لا يوصف وهي تنفجر، ولهذا وحـده حكايـة... فصـوت الانفجار في الرمال غير الانفجار في الرجـال، قـد تكـذب ولا تنفجر ألبتة. بان لي أن رفيـق الخنـدق هـو مسـئول الاتصالات وحامل التليفون الميداني، سمعته يردد:

- "هل... مسموع من جهة الشرق"... لم يعبأ بسـؤالي وأسئلتي من بعد. تابع: "يا فندم ربما إبرار جوي إسـرائيلي بالهليكوبتر".

استمع جيدا إلى رد القائد، ثم انشغل في تبليغ الإشـارة إلى كل قادة السرايا، لم أجد إلا تعليقًا واحدا أردده بيني وبين نفسي:

- "يبدو... أنني دخلت المعمعة حالاً".

تأكدت مشاعري بوصول إشارة تفيد سقوط دانة مدفعية للعدو على مقربة من السرية الثانية؛ أسرعت إليها.

هالني ما شاهدت وقتها؛ أجساد بشرية هلكـت، أشـياء جامدة مبعثرة... حافظة نقود مفتوحة يطل منها وجه طفـل

يضحك، مصحف صغير. آه... ممدودة من هنا ومن هناك. شخير أنفاس لا تقدر على الخروج، أسرعت إلى نقل ثلاثـة أحياء إلى الكتيبة الطبية الثانية.

استقبلني الرفاق. قبل مضي دقائق قليلة سمعنا "أزيـر" سيارة زل تقتحم أرض الكتيبة، انفرج الرفاق عني، انـدفعوا نحو السيارة، رأيت السائق يعتلي إحـدى الـتلال بمقدمـة السيارة بحيث استقرت مائلة إلى أسفل... فورا فتح الجانـب الخلفي لصندوق السيارة... رأيت ما لم أتوقع؛ دماء تتسربل، أعضاء بشرية تتساقط، أشياء مختلطة بجثث الجنود... كلهـا معا إلى الأرض... !!

كومة الأجساد والأعضاء لفوهـا بالبطـاطين، نقلوهـا إلى مدافن الشهداء، لم أتابع احتساء كوب الشـاي، عنـدما عدُت لم أجد ما أتفوَه به، اكتفيت بالارتكان إلى حائط الملجأ المنبعج؛ شعرت بأسياخ الحديد الصدئة للملجأ في ظهـري، في عيني ولساني... سـألني "بكـر" رفيـق الملجـأ، ذلـك الموسيقي الحالم وعازف الناي الأشهر في الكتيبة، قال:

"لم تحكِ لنا ما رأيت... إذن تكلم في أي شيء"... قلت كي أخرج من جلدي بعد طول صمت:

- ما عادت للكلمات أي معني... يا بكر".

تدخل وهدان ضاحكًا:

- "الظاهر أن الملجأ امتلأ بالفنانين".

تابعت وحدي:

- "أين كان العالم يوم اختلفوا على ثلاثة أحرف لاتينية في صيغة قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ بعد يونيه ٦٧"؟

شاركني بكر:

- "حقيقي... وكأنها مؤامرة عالمية، مؤامرة الأقويـاء ضد الغلابة !".

قاطعته مؤكدا:

- "بل هي الحقيقة يا بكر... العالم كله مـع المنتصـر حتى ولو كان ظالما، مع القوي".

هدأت قليلاً، خلعت حذائي، تمنيت أن أنام ليوم كامل... سمعت وهدان يسأل ببساطة غريبة وكأنه تعوَد على شـيء ما لم أتعوده بعد، قال:

- "تفتكروا فيه دعكة الليلة ؟... مازلنـا فـي الليـالي المقمرة"...

علق"بكر"جادا:

- "آه يا قمر... ربنا خلقك للحـب والإنسـان جعلـك للحرب !".

يلوح لي أنني مقيد بأوردة أذرعي وبهواجس رأسي؛ فلم أنتبه لذلك المشهد اللافت للرفاق، وقد اكتظ الملجأ بهم، كلهم انشغلوا في موضوع واحد..."إن رمضان هذا العام له نكهـة خاصة" اتفقوا، اختلفوا، وما انتهوا إلى رأي. قـالوا ضـمن ما قالوا:

- "التعليمات بإيقاف الإجازات يجب أن ننظـر إليهـا بأهمية"..."عادي، أسهل شيء عند القـادة إيقـاف إجـازات الجنود الغلابة"..."كيف... لقد تعوَدنا على ذلك، ألم يحـدث ذلك من قبل ؟"..."حدث ولكن هذا هو الجيش، ربما تمويـه هذه المرة ؟"..."تعني حربا يا صـديق، لقـد انتهـى زمـن المقاتلة، فقط نقاتل أنفسنا"..."لا تتشاءم يا هارون"!!.

"يا صديق، أنا اشتركت في حرب الاستنزاف من أوَلها، أيامها كنت أظن أنه يمكن الاستمرار حتى المعركة الفاصـلة أما الآن....".

تدخل نوفل قائلاً:

- "بموت عبد الناصر انتهي كل شيء... كل شيء".

قاطعه هارون زاعقًا:

- "بعدما اعتقلك، تقولها أيضا وقد اعتقلت في عهـده".

ضحك صلاح معلقًا كعادته وبطريقته قال:

- "ماذا فيكم يا أهل الإسكندرية. لماذا تكرهـون هـذا الرجل الصعيدي... الصعيد دائما منها الرجال الجـدعان... يا خسارة الـرئيس الجديـد منـوفي، وأيضـا لـيس مـن الإسكندرية!!"

تابع وحده وسط ضحكات الرفاق:

- "على فكرة، ولن يكون أبدا... طول ما في هذا البلـد صعايدة !!"

كثرت الأحاديث المتداخلة والجانبية ثانية:

"هل ممكن نحارب حقًا ؟!".

"الشواهد تؤكد أن شيئًا ما سوف يحدث"

"مظاهرة عسكرية... كما حدث في ٦٧، ربنا يستر".

"أنا لم أنم الليلة من صوت الجحافل الآليـة المتحركـة جهة القناة".

"مناورات الخريف... لا أكثر".

"ربما تمهيد لقرار سياسي".

"لا تنسوا أن الخبراء الروس قالوها... وقالها المرشـال مونتجمري بتاريخه الطويل حين وقف عند الضفة الغربيـة للقناة وهم يشيرون إلى الساتر الترابي والـنقط الحصـينة... قال إن الوسيلة الوحيدة للسيطرة علـى الـذي أراه يحتـاج إلى قنبلة ذرية محدودة"!

"ولكن وصلت تعليمـات إلـى الوحـدة بعـدم حجـز أي مريض إلا في حالات الطوارئ المسـتعجلة..."و"أيضـا إخلاء مخازن الذخيرة- السلاحليك – من السلاح وتسـليمها للأفراد".

"ولو... ؟".

"الدكتور فاروق يقول. إن اللواء"واصل" قال لهـم إنـه سوف يكون معهم مع أول الدفعات التي ستعبر القناة".

"ولو...".

"إذن بماذا تفسر هذا كله ؟... حتى الاستعداد للحـرب الكيماوية والوقاية منها على قدم وساق".

"ليلة الأمس شاهدت لأول مـرة وحـدات المهندسـين كباري ووحدات عبور"!!

"ولو...

ضل من كانت العميان تهديه..."

ولما طال النقاش بلا رأي واحد متفـق عليـه نهـض صلاح، صاح:

- "الأفضل نشرب شايا، الصوم سوف يحرمنـا منـه"؛ ضحكنا لأنه قبطـي، ويـرفض التـدخين وتنـاول الشـاي والوجبات طوال فترة الصوم.

الطيور الفزعة

علاقة ما جمعت بيني وبين الطيور والكلاب والجرذان... خلق ا على الأرض، أرض جبهة القتال، المنتظر ولا يأتي. أبدا أسأل عن تلك العصافير الرمادية الصغيرة التي تعتلي أسلاك الفولت العالي الممتدة من جنوب الوادي تعبر أرض الوحدة، وحتى مدينة السويس، تمدُّها بكهرباء السد العالي:

"كيف جاءت تلك الكائنات الضعيفة إلى هنا... ولماذا ؟ ترى أين المستقر لهذه الطيور الفزعة هناك ؟".

كلما ضاقت بي جدران الملجأ، وتزهق روحي من حدود الرملية الممتدة، وجبال عتاقة البعيدة ولا شيء يرى من قبل ولا من بعد... أمل حدود جسدي، أخترق نفسي بنظرات لاهثة راصدة نحو تلك الكائنات التي يتقولون عليها ويصفونها بالضعف! أجدها لا تهمد ولا تكف عن القفز والحركة، حتى في ثباتها تظل تهزهز ذيلها، يقال كي تتوازن وبخبرتي أقول لكي لا تهمد هنيهة. اليوم أراها فزعة وأكثر اضطرابا، أراها تتابع جنود ذلك الموقع الذي بات مكدَسا

بالجنود... بين ليلة وضحاها أصبح الجنود علـى كثـرتهم مقسمين إلى قوة أساسية تابعة للمستشفى الجراحي الميـداني رقم ٥ وهم الباقون في الموقع، وعدد ضمن قوة أفراد الكتيبة الطبية الثانية والتي تخدم الفرقة ١٩، ومهمتها سـتبدأ بعـد العبور إلى الضفة الشرقية، ثم عدد- وأنـا مـنهم- ضـمن النقاط الطبية المنتشرة على طول شاطئ قناة السويس بقطاع الجيش الثالث.

أما وقد وصل الأطباء المدنيون المكلفون وقد علقوا رتبا عسكرية تناسب درجاتهم المالية في وظائفهم المدنية، تأكـد عسر الهواء للوفاء باحتياجاتهم واحتياجاتنا، أيضا العصـافير البعيدة تهزُّ ذيولها... مازالت، الذكي منها يرمـي بمنقـاره ورأسه إلى أسفل بشدَّة، وكأنه المتابع المحلل لحالتنـا نحـن البني آدميين تحته... بماذا يحلل، وماذا يقول ؟!.

الحركة غير العادية في كل شيء من أرض الموقـع... الأفراد يتسلمون أسلحتهم الشخصية والتموين الميداني الجاف والخوذة وأدوات الوقاية من الحرب الكيماوية، أما العربـات فتعبأ بتنكات البنزين والمياه وبالذخائر، مستلزمات العلاجات التقليدية والسريعة فضلاً عن المحفات والبطاطين.

حان ميعاد تعبئة عربات الزل الخاصة بـأفراد النقـاط الطبية مع عربات الإسعاف.

حان وقت الترحيل إلـى مجهـول الزمـان والمكـان. انشغلت مع الملازم أول طبيب نبيل قائد النقطة، معا حاولنـا البحث على تلك الخريطة الصغيرة التي تسلمها حالاً حتـى نحدد موقعنا على شاطئ القناة... حدَدوها لنا بعلامة × تبعد حوالي خمسة كيلومترات عن العلامة المماثلـة المجـاورة، وعن موقع أقدامنا الآن بحوالي ثلاثين كيلو مترا... سـألني إن كنت ذهبت إلى هناك ذات مرة... نفيـت. لـوى شـفتيه قائلاً:

"معنا ا "...

أشرنا إلى الاثني عشر جنديا – حاملي نقالة – وهم قوة النقطة الطبية من الأفراد كي يسرعوا إلى ركوب السـيارة" من لم يجد مكانًا في صندوق السيارة الـزل يركـب معنـا في سيارة الإسعاف".

ركبوا كلهم إلا "فوزي". صرخ نبيل:

"أين الجندي فوزي... ابحثوا عنه... أحضروه من تحت الأرض ... ؟!". الأرض شُقت وابتلعتـه، الجنـدي فـوزي

بدين، أبيض لون البشرة، متوسط القامة... ما معنى هـذا ؟ هروب من الميدان.... سوف يعاقب بلا محاكمة.... أخـرج قائد النقطة مسدسه، شهره في وجه زملاء الجندي المختفـي ولم ينطق !

اختفوا جميعا لفترة طالت، بعدها هاجت الرمال الناعمة واحتوتنا الأتربة وكأنها الخماسين في أكتوبر، في الرابع من أكتوبر. حدقت مليا... وجدتهم يسحبون الجندي ! الأحد عشر جنديا يقبضون على ساعديه وعضديه وفخذيه وخصـره... يجرجرونه منها. أما رقبته ورأسه المدلاة... أما ساقاه وقدماه الزاحفة على الأرض مثيرة للرمال والأتربة فقـد رحمـوه من قبضتهم عليها... ؟!.

ظلوا هكذا، وظل هو كذلك يبكي حتى أوصلوه إلى باب سيارة الإسعاف، يبدو أن استسـلام فـوزي انقلـب تمـرُّدا شيطانيا. كلما صاح القائد علا صوت صراخ فوزي الذي هو ولولة ودعاء بالهلاك والموت له ولمن يجبره على ركـوب السيارة مع أفراد النقطة الطبية !

لم يعبأ فوزي بالمسدس المتجه إلى رأسه، فوجـد قائـد النقطة من الحكمـة محـاورة الجنـدي ومحاولـة إقناعـه

بأن ما فعل سوء سلوك وعدم وطنية وخيانة، وأنه الآن مثل النسوان بالضبط..."وما الفرق ؟ هن فـي بيـوتهن وأنـت كذلك"دهشت أن وجدُته يكف عن البكاء، أن وجدته ينطقهـا واضحة:

"لا... أنا رجل وسيد الرجال، أمي وحشـاني... منـذ شهرين... لم أنزل إجازة"! اعتلى فوزي سـيارة الإسـعاف وحده بجوار السائق وهو يمسح إفرازات أنفه ووجهه المبلل بكم سترته العسكرية. جاء دوري لاعتلاء إحدى السـيارات قبل أن تهمَ بالتحرُك نحو موقع النقطة الطبية التي لا نعرفها، رميت نظرة بجانب عيني، لمحت ذاك العصفور الذكي نفسه يرمي بمنقاره ورأسه إلى أسفل بشدَة... مازال !.

شغلني مشهد الجندي فوزي وهو يبكي، وهـو يبـرر هروبه منا، وهو يرفض أن يوصف بالمرأة. وهو في النهاية يتمني رؤية أمه. لم أجد تفسيرا مقنعا... شغلتني آخر نظـرة للعصفور الذكي.

تذكرت ما قاله أحمد عبد المعطي حجازي:

تغريني بالحب يا صديقي

فمن تُرى يضمن لي موتًا بلا ندامة

ومن تُرى يضمن لي في هذه المدينة القيامة

بقيت على حالي حتى مللت ما في رأسي، رمقت كلبـا يعدو في البيداء الصفراء بجوارنا... آه... الكلـب... ذلـك المخلوق الذي لم يبرح عيني وأذني طيلة فترة تجنيدي منـذ أيامي الأولي. شاركني وعبث بأعصابي وقد وقفت للحراسة وفي يدي عصا غليظة بدلاً من البندقية في مركـز تـدريب الخدمات الطبية، لم أحاول ضربه، كثيرا ما كـان يبـاغتني في سواد الليل بعينيه اللامعتين، مثلما رأيته يعبث في مطرقة الجرس النحاسي الكبير لكتيبة المدفعية التي ألحقت عليهـا، فيما بعد، أثناء فترات التراشق يرقد داخلـه ويعبـث، كأنـه يحذرنا حتى ارتبط ذلك الصوت المتقطع للجرس ليلاً بليالي حرب الاستنزاف البعيدة... رأيته بعين رأسي بـين حطـام مدينة السويس المهجورة الحزينة يعدو ويلهو، يـوم اقتـرح هارون علينا قضاء ليلة هناك... يومها سألت:

"أين الرجال، لم ألحظ ظل أحدهم"؟

قرأت ما كُتِب على الحوائط المهدَمـة..."النصـر لنـا" و"القناة لنا"، "يسقط الاستعمار" "ستعود سيناء"، "يا رب يموت الإسرائيلية"... يومها غنيت فـي مركـز شـباب السـويس

مع فرقة أولاد الأرض أغانيهم التي أبكتنا... وجـدتني أردد بصوت مسموع وأرمي ببصري إلى اللاشيء. أقول:

يا مغنيين موال بهيه وحكايات الشاطر ياسين.

يا مجرجرين جثة ماضينا في طريق الكادحين.

يا راعشين موال ولادنا يا صابغين لون السنين.

وقت الغناوي فات وعدا الوقت وقت الحيرانين.

م نعلم ولادنا غير غناوي المنصورين.

الضابط نبيل أشعل سيجارة، رشقها بين شفتي فصمت، ابتسمت، فهمت مقصده... بعد فترة قال:"أحيانًا الفعل، العمل... أبلغ من كل كلمات الدنيا".

ربما يأتي وقت الغناء... ربما لا يأتي المؤكد ليس الآن ؟".

وقفت السيارات عند أقرب نقطة اعتقدنا أنهـا منطقـة عملنا... ثانية تطلعنا على الخريطـة، تأكـدنا مـن النقـاط الإشارية التي حددتها... أرض زراعية، طريـق أسـفلتي،

مبنى من الحجر مهدَم ها هنا... ولوحة إعلانات خشبية قائمة على قوائم معدنية مازالت تنبه المارة إلـى أن إحـدى دور السينما بالسويس تعرض فيلم "ريا وسكينة".

منذ أواخر عام سبعة وستون والإعلان باقٍ !

وقفت ونبيل نطل علـى الأرض مـن حولنـا... أيـن المستقر والمقام ؟. اقتحمنا العم مرزوق، عـرف مقصـدنا، دون أن نوضح فهم... فقال:"علـيَّ الطـلاق بالثلاثـة مـن أم العيال يكون مقامكم عندي. علـى الأرض"، مـن هـول ما سمعنا، افتعلنا دارسة موقع المزرعة مما يتيح لنا فرصـة تبرير الموافقة ليس بسبب قسمه بل لأسباب إستراتيجية !.

تقدَمنا الرجل فبدت كعبا القـدم المتشـقق، وعرقوبـا الساقين البارزتان لم يخفها الجلباب البني الغـامق المتسـخ وقد رفع إحدى جوانبه وحشره في الجيب. ظل كذلك حتـى وقف وحده ليقول كلمته الأخيرة:"الأوله، أنا هنا فـي موقـع يخدم حركة عربات الإسـعاف. الثانيـة، المكـان مخنـدق طبيعي... والثالثة والأهم لازوما تكونوا تحت رعايتي كلكم... أنتم والبهائم، والزرع... عدم المؤاخذة !".

لم نكن في حاجة إلى تبريراته فقد تورّطنـا عسـكريا إلا أننا لاحظنا إمكانية الاستفادة من حجـرة بناهـا الرجـل بالطوب الأحمر ومغلقة، كما توجد بعض أشـجار النخيـل المرتفعة وكذا المزرعة على مقربة من الطريق الأسفلتي... مال نبيل إلى رأسي: -"طالما نحن في دائرة علامة × التـي حددتها الخريطة فلا مانع"... وافقته صامتًا... انشغلت فورا مع الجنود؛ للتأكد من التجهيزات الخاصة بحالـة الطـوارئ وبتوزيع الجنود على نقاط الخدمة أو الحراسة التي حـددتها سريعا، ثم أخيرا بسؤال كل فرد مـن القـوة عـن سـلاحه وذخيرته والتأكد من وجود اللوحة المعدنية المسـجل عليهـا الرتبة والرقم والاسم لكـل مـنهم. ثـم جـاء دور فـوزي وقد قررت بيني وبين نفسي أن أفصله عـن أعمـال القـوة مع عدم تكليفه بأية مهمة حساسة أو تكليفه بالحراسة، أخبرت قائد النقطة بذلك ووافقني، وهو يتأمل سحنة الجنـدي التـي بدت بلا أدنى انفعال وقد كف النطق. أيضا !.

رفض الجنود الإفطار، بعـد الترحيـل ومـا اسـتتبعه من خطوات وأعمال ظلوا صائمين، قبل ميعاد أذان المغرب بقليل انقض علينا العم مرزوق ثانية، اختفى بعـد أن تأكـد

من تحقيق رغبته الأولي، هذه المرة أقسم بـالطلاق ثلاثـة أن يتناول الجنود طعـام إفطـارهم مـن طبيخـه، ولـيس من الوجبات التي تنشف البطن !!.

هذه المرة سعدنا بأن أقسم بالطلاق؛ التهمنا كل الطواجن الفخارية المعروضة على أفواهنا، أكلنا بشراهة غريبة الأرز والبطاطس والخبز والفجل والبصل والبرتقال... كله، كل ما عرضه الرجل علينا أكلناه... قبل أن يقسم لثالث مرة بالطلاق طلبه نبيل، وضعه تحت إبطه، فالرجل قصير قصير ونبيل طويل طويل فكان لابد من تلك الرابطة بينهما وهو يحاول أن يجعله يعدل عن مبدأ القسم هكذا... حتى قال نبيل:

"من الآن صدقني... وبدون قسم... وعليّ أنا بالطلاق ثلاثة... بالرغم أنني ما زالت عزبا... لن نرفض لك طلبا ما دام لا علاقة له بعملنا ومهمتنا التي جئنا من أجلها... !.

سعد الرجل أكثر أننا أصبحنا نناديه "بالعم مرزوق" وبدون اتفاق بيننا منحناه اللقب.

أثناء تناول الشاي الدور الأول والدور الثاني والثالث لمن يرغب. قصّ العم مرزوق قصته، هي نفسها قصة

اخضرار تلك الأرض التي نجلس فيها وعليها، وقد هاجر إليها من إحدى قرى الشرقية القريبة من منطقة القناة: "استصلحتها بعرقي... زرعتها بذراعي وكدي بعد حرب ٥٦. أنا كنت الأول في الخط كله، كل من في الناحية جاءوا بعدي بسنين تعبت فيها ياما... تزوجت عليها ومن خيرها... خلفت وساعدوني عليها، كل على قدر قدرته...

رفضت الهجرة بعد ٦٧، أروح لمن، أرضي هي أهلي وناسي وكل شيء لي في هذه الدنيا... إن عشت زرعتها... إن مت أدفن فيها... من التراب وإليه". تحية لنا، للدكتور نبيل ولي، فتح لنا داره... حجرة نومه هو شخصيا... أقسم ولكن بغير الطلاق، أقسم ثانية أنه شخصيا لم ينم فيها بعد هجرة الأولاد.

بدأنا رحلة النوم في ساعة متأخرة من الليل، ومعنا العم مرزوق، عندما يغلبه النعاس يشخر بصوت خشن عالٍ... فلم تغفل لنا عين... أنا ونبيل الذي همس في أذني:

"النوم في الطل أرحم"..."نقضي الليلة كيفما تكون، غدا يوم آخر !".

ضحكنا... ينتبه العم لنا، نخبره أن يعدل من وضع رقبته، يوافقنا ويؤكد أنه لم ينم..."كيف أنام ؟!"نحاول تفسير سؤاله أهو استفسار أم استنكار، نتسامر حتى يغلبنا النعاس ثانية... لاحظته ما بين الحين ينقلب من الجانب الذي ينام عليه إلى الآخر... وفي كل مرة، كل مرة يقول ويؤكد:

"أنا صاحي... أنت نائم يا طارق ؟!".

في الصباح التالي تسللت كي أتعرَّف على الدنيا من حولي، عادتي كلما نُقِلْت إلى منطقة جديدة. زحفت حسب تعليمات العم مرزوق... المحنك إلى مقربة من الشاطئ الرملي للقناة. اعتليت أحد الكثبان الرملية لأرى ولأول مرة أرى... العلم ذا النجمة السداسية الزرقاء على الأرضية البيضاء يحفها من أعلى ومن أسفل خطان باللون الأزرق، بقيت على حال النظرة فترة لم أحسبها... شعرت برغبة أن أستلقي على ظهري ناظرا إلى السماء، واضعا ساقي اليسرى فوق اليمنى. بدأت أسائل نفسي:

"ها هو ذا علمهم يرفرف على أرضنا في الضفة الشرقية... ؟

ها نحن ذا هنا عند حافة القناة في مأمورية لا نعرف هدفها ؟

هل هي إيذان بإعلان الحرب حقًا ؟!!".

عدت واتهمت نفسي بالغباء:

"كيف تكون الحرب... العمال المدنيون يعملون أمامي عند شاطئ القناة في بعض التجهيزات الهندسية والتي لم تستكمل بعد ؟... كيف ولم أر جنديا يرتدي الخوذة ؟!!.

كيف وقد قرأت في صحف الأيام الماضية إعلانًا لوزارة الحربية عن عزمها لتنظيم رحلة عمرة، وعن تسريح إحدى دفع المجندين ؟!!.

إن المانشيت الرئيسي في صحف الخامس من أكتوبر تعلن عن توتر على الجبهة السورية، قد يهدد بالانفجار في أي وقت... وكأن الأمر لا يعني أحدا ؟!! اكتفيت بالنظر في المحل، كما علمونا بالقفز في المحل، والجري في المحل... أن أمارس حياتي كلها في دائرة قدمي، وفعلت شاردا، علامة استفهام كبيرة قد احتوتني.

بالرغم من الصمت الغامض الذي احتوى الموقع، التقطت أذناي وسط السكون نشيش حركة مياه القناة القريبة، فحيح الهواء يلاطم أوراق الأشجار هناك، وربما أشياء أخرى لم أتبينها بعد، وهو ما كان ليلة وصولي إلى كتيبة المدفعية لأول مرة... التصقت بقدمي "العريف محمد" مندوب

الوحدة التي سوف ألتحق بها، أحاول جاهدا متابعة شبحه الأسود في الظلمة، وصوت أنفاسه. أدركته يعتلي كثبا رمليا... وتارة يسرع الخطى، ومرة يبطئ... في كل الأحوال يعلم السرَ !!.

وقوة تنال من كاهلي من ثقل المخلة التي أحملها منذ الصباح... نقفز معا، أنا وهي ومعنا العريف كالقردة من سيارة إلى أخرى، وصلنا ليلاً... وللسببين معا صرخت، افتعلت أنني تعثرت الخطى حتى أريح نفسي وأجلس على المخلة ولأجبره أن يقترب مني... الهواء المندفع إلى تجاويف جسدي جعلني أشعر بالقشعريرة من كثرة العرق المنتوح تحت سترتي العسكرية، سألته:

"أين الجنود... أين المقاتلون على الجبهة يا عريف محمد ؟؟

... بأية حواس شيطانية يعيش هؤلاء ها هنا... وكيف ؟!"

يبدو أن سؤالي استفزَ فيه عظيم خبرته وافتخاره، فقال:

"انظر، هنا صخرة كبيرة على يميني، حفرة برميلية، هناك ملجأ أفراد... !". ليلتها ظل يصف طبوغرافيا الموقع بثقة ليست غريبة حتى قال:

"هنا سوف ينادونك... بـ يا وحش"

سألته:

..."ماذا تعني ؟!!".

..."تعني أنك تعيش في الأدغال"!!

هأنذا... يغلفني الصمت الغامض وقد احتواني ثانية ولكني بغير العريف المرشد... مازال السؤال القديم باقٍ:

"أين الجنود هنا... أين المقاتلون على الجبهة ؟... ما أراه قلة لا تشي بتجمعات تصلح للعبور... كما أظن أو يخال لي، إذا ما كانت هي الحرب ؟؟

سمعت صوتًا لا يوصف ولكني أعرفه؛ إنه لشيء يعدو ولم أره..... لعله لأحد الجرذان. لم أغير من موضع رأسي بعد أن رفعتها قليلاً كي أتابع الصوت، خبرتي أكدت لي ما سمعت، الحق يقال لم أر وأعايش جرذانًا بحجم وكثرة جرذان ملجأ عتريس الأول والثاني وأنا في كتيبة المدفعية !

فور وصولي إلى حدود الوحدة، شبح آخر اتضح لي، اتسعت كرتا عيني... بان لي شاهرا بندقيته، صرخ بصوت كفيل بإيقاظ الملائكة في السماء:

..."اثبت محلك"

ردَ العريف محمد المحنك":

..."أمين يا وحش"

تابع الشبح:

..."أقدم واحد يتقدم"

تقدَم العريف، لا لأنه أقدم مني، لأنه أدرى مني في هذه الدنيا الجديدة، سرعان ما دار حوار سريع بينهما:

..."كيف الحال يا أبو حميد"... ؟

..."عنب".

..."وأخبار ولاد الحرام"

..."كل يوم علقة... لكن الوحش خليل أصيب"

..."خطيرة"؟

..."قدَر ولطف"

بذلك القدر سمح لنا الشبح بالعبور إلى طرقات الوحدة... المخلة، ذلك الجوال المصنوع من الكتان، بداخله كامل عهدة القوات المسلحة لي، أحملها فوق كتفي الأيمن ثم الأيسر، ثم أعجز على كليهما، وكانت همي الثقيل، منذ صباح الترحيل من المركز إلى وحدة المدفعية. ما أن أشار إلى العريف أن أنزلق إلى تلك الطرقات المعوجة المفضية إلى حفرة بها بشر اندفعت مهرولاً... بإشارة أخرى ألقيت بها إلى الأرض حتى أثارت الأتربة في وجوه الحضور. لم أكن قد تبينتهم، شعلة اللمبة الصاروخ المرتعشة، بانت كأفضل من قرص شمس وقت الظهيرة. لإجهادي رأيت الناس والأشياء ترتعش من حولي هي الأخرى، ورأيت أسنانهم تلمع، سمعت صوت حناجر قوية تضحك وأنا ألعن المخلة ومن فكر فيها ومن صنعها ومن سلمها لي يوم استلامها ؟!

علت الضحكات أكثر؟؟. إنهم أفراد طاقم المدفع"عتريس الأول"، أسموه بهذا الاسم تيمنًا باسم الحكمدار السابق لهم وقد استشهد.

ارتميت، جلست على المخلة، ألقيت نظرات متأنية فاحصة إلى الأشياء من حوالي... إلى الصور الملتصقة بالجدران المشيدة بتلك القوائم نصف الدائرية الحديدية والمكسوَة بالخيش المقطرن المشبع بالزفت... وقد رصت أجولة الرمال رصا منتظما حتى غطت ذلك السقف المقوَس، لمحنى أبو غالي قال وهو مشغول في شيء ما:

..."هذا الملجأ يسمونه قفص القرد"...

رددت هامسا:

... إنه أشبه بسجون العصور الوسطي"...

لمحت تلك الصور المدلاة هنا وهناك بعضها لراقصة مشهورة... ابتسمت عندما تذكرت ما كان منها:

..."إنها قالت:... الفنان ليس له وطن. تركت البلد بعد ٦٧، وربما عملت في ملاهي لبنان من بعد"...

كانت صورة فريق نادي الزمالك وفي مقابلها صورة فريق الأهلي، قلت بصوت عالٍ:

"قالوا لنا إن الكرة سبب النكسة... الكرة وأم كلثوم"... من بعد شاركني العريف محاولة التعرُف على المكان، قال:

وهذا الناي المدلى... ناي "بكر"، إنه في الخدمة الآن، وعندك الداهية "رجب" أهم قناص في الفرقه ١٩".

عندما التفت إليه وجدته يغط... لحقني العريف ضاحكًا:

..."لا تصدقه... حاول تسرق منه القلم مثلاً".

أبو غالي حاول بكل الحرص، إذا بيد رجب القوية تقبض عليه، لنضحك ويعلق العريف مؤكدا:

..."ألم أقل لك... ؟"

أخيرا مللت الذكرى والتذكر، عدُت إلى أرض المزرعة بعد أن مررت على أفراد الحراسة وللسؤال عما إذا كانت هناك أخبار جديدة... ؟.

السمان يهاجر مرتين

في الصباح التالي تسلم الضابط نبيل الإشارة التي قرأها سريعا، أطلق العنان لأفكاره، لم يفصح وهـو يلقـي بـ ذلك الشعاع الغامض من عينيه قال:

- "هناك أوامـر بالاسـتماع إلـى الإذاعـة اعتبـارا من الساعة ١٠٠٠ صباحا، شيء ما يتأكد، يفرض نفسـه". لم تعد الرغبة ولا الشواهد وحدها تشي وتفصـح، تجمعـات جديدة من جنود سلاح المهندسين بمعابرهم المعدنية. كانـت نوعين هما ما أمكنني تمييزهما. كابينة سيارة ملحق بها كتلة معدنية سداسية الأضلاع، عرض الضلع لا يزيد عني المتـر ونصف، وأخرى خشبية.

كان مركز جمعهم قريبا من النقطة الطبية بحيث أصبح من السهل عليَّ أن أتابع تحرُّكاتهم وصوت همهماتهم. اقترحت على قائد النقطة أن نزيد من أعلام النقطة. قطعة الشاش الأبيض العريضة ونرسم وسطها الهلال بالميكروكروم الأحمر... نثبتها في شجرة، في عصي، في أي مكان. وافقني وانشغلنا بعض الوقت فيها.

منذ اللحظة الأولي التي وطأنا فيها تلك الأرض... لم أكلف الجندي فوزي بمهمة، ولم أسقطه من رأسي، وجدته وحده ينهض من موقعة المختار تحت إحدى الشجيرات القصيرة، يتقدَم نحونا بثبات وصمت، افتعلنا الانشغال في العمل وعدم الانتباه له... بالصمت نفسه، والثبات سحب قطعة من الشاش وانشغل فيها. عندما أخرج سيجارة وأشعلها وجدتها فرصة أن أشاغله:

- "ألست صائما يا فوزي ؟".
- "لا أصوم".
- "لماذا، ألست رجلاً ؟".

فإذا بالصامت البليد السحنة يهيج في وجهي، لتخرج الكلمات من بين شفتيه غير مفهومة ولأسمع صوته لأول مرة منذ يومين ..

العم مرزوق انقضَ علينا كعادته؛ فهو سريع الحركة، سريع الكلام، سريع القرار، وكأن الدنيا كلها محسومة ومحسوبة في رأسه، ظننت أن هذا الرجل لا يفكر ألبتة في إجابة على سؤال أو في اتخاذ قرار... وهو ما حدث هذه اللحظة:

- "فوزي رجل وسيد الرجال يا طارق يا بني... هو قال لي إنه سمع فتوى المفتي بأن للجنود رخصة الإفطار ففطر"، وجهت سؤالاً إليه مبحلقًا إلى بؤرة عينية علني أخلص إلى نتيجة تريحني... فاجأني قائلاً:

- "منذ تجنيدي وأنا لا أصلي ولا أصوم".

- "لماذا ؟!!".

- "مرتبك... محتاس... غارق"؟

- "فيما يا فوزي... ؟".

- "في الملابس الداخلية للضباط وأوساخهم... في تهذيب شواربهم وشعر قفاهم".

- "أنا أعلم أنك كنت ضمن أفراد ميس الضباط ولكني لا أعلم أنك منزعج إلى هذا الحد. غالبا من يعمل في الميس يعمل برغبته... هناك الطعام المجهز والمحسن بالإضافة إلى الطعام الميري، هناك الإجازات الطويلة. ألم تكن ضمن من تركوا الميس وطلبوا عودتهم إليه لخدمة الضباط"...

- "لم يحدث... لم يحدث".

قالها بصوت عالٍ، هكذا... من الصمت الغامض للصوت الهائج !!

- "ماذا حدث إذن"؟؟

"أنت تعلم أنني الحلاق الوحيد في الوحدة؛ لذا أجبروني على الخدمة في الميس... حتى أكون تحت أمرهم وعندما تركتهم أعادوني بالقوة !"..."بل طلبتها أنت... أنا واثق".

طأطأ رأسه إلى الأرض:

- "نعم حدث"!

- "ولكن لماذا... لم تسألني كي أجيب عليك ؟"

- "لماذا يا فوزي ؟".

- "لأنهم نبهوا على الصول عبده بإنهاكي في الخدمات أحيانًا يوميا وغالبا "شينجي"... وأنت تعلم أنها أسوأ الفترات في الخدمة... من العاشرة حتى الثانية عشر ليلاً ومن الرابعة حتى السادسة صباحا غير خدمة السلاحليك ٢٤ ساعة !".

- "وماذا حدث بعد ؟".

- "عُدت إلى الميس بالأمر، وبالأمر حرموني من إجازاتي عقابا لي، لا طلت العيش مع زملائي، ولا طلت ميزات الميس إياها... زهقت، طهقت".

وكلاما كثيرا من بعد، لم أتبينه، فهو ينطق الكلمات مضغومة والمعنى غامض؛ فقد فهمت أنه حرم من إجازاته منذ فترة طويلة... ولم ير أمه المريضة وهو وحيدها الذكر.

لم يتابع نبيل حوارنا وهو ما شجع فوزي على الكلام، وكنت انتهيت من العلم الثاني. لحقت بنبيل لمتابعة أحوال الدنيا من حولنا، في كل ثانية جديدة مشهد جديد، جنود وسيارات وضجيج يعلو... حتى كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما مرقت أسراب الطائرات... متتالية إلى الشرق..."مصرية إذن !".

"إنها قاذفات مصرية تي يو ١٦ يا طارق".

قالها العم مرزوق الذي اعتلته الحيرة، لم ينفعل مثلي ونبيل انشغل في حك قفاه، قال:

"ماذا بك يا عم مرزوق"؟

"القاذفة تحتاج مقاتلة اعتراضية تحميها يا جماعة. الطائرات الاعتراضية خفيفة الحركة وسريعة، قادرة على المناورة مثل الميج". فصمتنا أمام وجهة نظره الخبيرة... سرعان ما تحوَّل الصمت الحائر إلى أسئلة محددة:

"ماذا تعني بالضبط يا عم مرزوق"؟

"هل سنفقد طائراتنا في السماء هذه المرَّة ؟!".

الرجل اكتفى بالدعاء ولم يرد على أسئلتنا... دقائق قليلة وسمعنا ضجيجا ألفته أقل قوة أثناء حرب الاستنزاف، أصوات الدانات والفرقعات ملأ الدنيا... انتصب العم مرزوق كأحد مارشالات الحرب العالمية المحنك، وقف صائحا: "إنها الحرب يا رجال... الطوبجية اشتغلوا"

انطلق لسان الرجل الملجوم بدأ يشرح ويفيض ويتذكر خبراته بالأحداث والتاريخ أثناء حروب ٥٦، ٦٧ وحرب الاستنزاف...

"إن تلك الأسراب المتوالية التي تعبر القناة إلى عمق سيناء، مع ذلك الصوت الطاغي للدانات المتوالية لا يحمل إلا معنى واحدا. هي الحرب وقد بدأت، أكيد... إن طائراتنا تضرب مطاراتهم وتجمعاتهم في العمق، ومدفعياتنا تدكُّ الحصون والساتر الترابي وخطوط الإمداد الخلفية..."زحفنا حتى اعتلاء أحد الكثبان الرملية، تابعنا الحوار:

"المدفعية تدكُّ الحدَّ الأمامي المائل للساتر الترابي يا جماعة"..."أكيد حتى تتمكن أفراد المشاة من

اعتلائه"..."وربما لكباري المهندسين أيضا"... بعد مضي ربع الساعة أشرت نحو السماء:

-"انظروا لقد عادت طائراتنا ربنا سلم يا جماعة". انقضت ربع ساعة تقريبا؛ شعرنا بمياه القناة تتماوج وبرذاذات مياهها تلاطم وجوهنا من شدَّة القذف. لم تهمد التعليقات:"أسراب طائرات جديدة جهة الشرق"..."قوارب العبور المطاطية يزداد عددها يمينًا ويسارا... ربنا معنا"."... انظروا ها هم المهندسون... بدءوا تركيب الكباري"... دهشت من سلاح لم أره من قبل، قال نبيل:

"حسب معلوماتي هو المدفع الألماني... بالرغم أنه فكرة وتنفيذ مصري؛ اسمه كذلك مخصص لعمل الثغرات في السائر الترابي... يعتمد على فكرة المضخة المجهزة بطريقة خاصة لهذه المهمة"... لم يمضِ وقت طويل حتى امتلأ سطح مياه القناة بما يشبه رغاوي الصالون. حدَّق ثلاثتنا فيما نرى... تأكدنا أنه من أثر مضخات المياه التي عبرت منذ قليل فدفعت الرمال إلى مياه القناة وصنعت كل تلك الرغاوى التي جعلت سطح القناة يشبه حوض غسيل كبيرا... جدا، بطول القناة وعرضها.

شغلنا المشهد تلو المشهد حتى قلت:"ونحن متى سنعمل مثلهم، ألسنا ضمن المشاركين في الحرب ؟... في البداية استقبلوا كلماتي وكأنها سبة... بعد هنيهة فكروا في الأمر، بما فيهم العم مرزوق... قالوها معا:

-"ربنا لا يجعلهم في حاجة لنا... ولا نشتغل أبدا !"عدنا إلى حيث فوزي، ضحكنا من القلب كما لم نضحك من قبل، وهذا حق لم نضحك منذ فترة طويلة... اكتشفنا أن فوزي صنع أكثر من العشرين علما للنقطة ومنهمكًا في تجهيز العلم الواحد والعشرين !!... استمعنا إلى الراديو، موسيقى عسكرية... قطع، إعلان عن إذاعة بيان عسكري عن القيادة العليا للقوات المسلحة، قرأه دون تحديد رقم له:

"ردا على العدوان الغادر الذي قام به العدو على بعض مواقعنا على خليج السويس وسدرة تقوم الآن قواتنا بقصـف مواقع العدو"... تبادلنا النظرات بغير لسان يتحرك ولا كلمة، كأننا في انتظار سماع شيء ما لم يبح به المذيع.

أشار نبيل إلى سائق عربة الإسعاف الذي تقدَم مسرعا، أمرته بالتحرك حتى أقرب مركز تجمع للقوات ثـم يعـود،

وعليه معاودة ذلك مرة كل ربع ساعة حتى يتضح الموقـف ثم نظر إلينا:

"يجب ألا ننتظر المصاب".

عاد موجها حديثه إلى مجموعة الجنـود التـي التفـت حولنا... يظنون أننا أدرى منهم فيما قيل وما سيقال من بعد. فتجمعوا بتلقائية يلفهم سؤال هو نفسه الذي يدور في رءوسنا.

"وماذا بعد... تُرى ما الموقف بالضبط !!".

هل بدأت الحرب ؟... هل هي معركة كما يشير البيان. لم أصل إلى حل أو رأي محدد، من خلال مناقشتي مع نبيل بعد أن أمرهم بالعودة إلى مواقعهم المحددَة لهم من قبل.

ثانية لاحظنا التفافهم حولنا، فور وصول عربة الإسعاف وداخلها أول مصاب، يظنون وأنا معهم أن أول القادمين حتما معه كل ما نتشوق سماعه من أخبار وأنباء... كان أحد أفراد سلاح المهندسين يشكو من تقلصات غامضـة فـي بطنـه، لم نستطع سؤاله إلا بعد أن هدأ قليلاً وجف العـرق الغزيـر من فـوق جبهتـه اللامعـة، أجـاب أن وحدتـه شـرفت على الانتهاء من تركيب المعبر، قبل أن يختفي الألم تمامـا.

كان العم مرزوق جهز له كوب نعناع ساخنًا... لم يشـربه، نهض واقفًا:

- "إلى أين يا وحش"؟!

- "إلى وحدتي"...

- "أنت الآن تحت العلاج، حتى الآن لم نعرف سـبب المغص انتظر حتى"..."أنا الآن أفضل لو سمحت سـيادتك". لم يترك فرصة لمزيد من الحوار. ذهب وأيضا لم نسمع منه ما يشفي غليلنا في متابعة ما يحدث من حولنا. إحدى عربات الزل تزمجر، صوت نفيرها لا ينقطع، أشار إليهـا الجنـود بالوقوف، رفعوا للسائق أحد أعلام النقطـة ومنـه الكثيـر، سرعان ما اعتلى اثنان من جنود النقطة صندوق تلك السيارة استلما محفة من آخرين، حملا مصابين على محفتين:"يبـدو أنها بدأت فعلاً"!!

"فال ا ولا فالك يا طارق"... قالها نبيل وهـو يتـابع المصابين شاردا"!!.

هالني ما شاهدت... أحدهما فقد النفس والنبض وكدمات شديدة في وجهه وزميله صامت مبحلق فينا.

أشرت للجنود بحمل الأول بعيدا، ووضع بطانية فوقـه، بعد نزع اللوحة المعدنية من قايش البنطلون، وسرعة تسجيل بياناته في دفتر الشـهداء الـذي أعـددناه سـلفا... رقـم / ١٧٨٣٥٩. رتبة / جندي، الاسم: إسماعيل ريان – همست: لعله أول شهداء الحـرب... سـرعان مـا شـاركت نبيـل في محاولاته مع الآخر... وجد المصاب لا يعبر عن شيء، لا هو ألم ولا هو انبساط، كلما نظر إلى من حولـه أكثـر. زادت قبضته على اللفافة التي يحملها !

سألناه:

- "ماذا بك"؟؟

- "الحمد ا "

لم ينطق بأكثر من هاتين الكلمتين... مـال نبيـل إلـى أذني:

"لاحظ ارتعاش أطرافه مع برودتها..."

بعد قياس ضغط الدم... قال:

"تعاق له محاليل... ونرى"

"ماذا ترى ؟"

"أخشى أن يكون هناك نزيف داخلي".

انتهينا سريعا من الإسعافات الأولية، وتعليق المحاليـل، وحقنه بالمضادات الحيوية المناسـبة، ومضـاد التيتـانوس، أثناءها حاولت سحب اللفافة التـي فـي يـد المصـاب... رفض... العيون تعسعس الرؤى بفضول لمعرفة ما يحمـل ذلك الرجل النحيف، المتوسط القامة، الأسمر البشرة، المتسع العينين، وقد رمانا بنظرات لعلها لاعنة لمجرد محاولة آخـر في سحب اللفافة بالقوة.

أخيرا جدا... أمام إلحاح الجنود الـذين يسـألونه عمـا فيها.. ابتسم، خرجت بسمة غامضة، خليط هـي مـا بـين تقلصات ألم وانشراح صدر. عفوا، انفراطات دمعـة كبيـرة وقد لمعت. بدأ يتململ صامتًا، أخرج حافظة نقوده الجلديـة السوداء الجرباء، دهشنا من تصرُّفه... بدأ يفرغ مـا بهـا، سحب صورة لفتاة ريعانة... أشار إليهم وإليها ثم بكى، لأول مرة يبكىي ولأول مرة ينطق:

- "ليس عيبا أن يبكي الرجال، إنها خطيبتي ؟"."انشـغل نبيل في قياس ضغط دم الجندي"..."ربما يحتاج إلى عمليـة استكشاف"."إذن ننقله فورا".

تابعت حوار الجنود ثانية، سمعته يقول: -

"نعم، من النقطة الحصينة". ما أن نطقها حتـى انـدفع الجنود عليه أكثر:"أول مـرة نـراه عـن قـرب"..."نريـد أن نلمسه... أن نقبض عليه"... تشابكوا فيه وعليـه، انفعـل المصاب، سحبته بشدة، ثانية اللفافـة بـين ذراعيـة، نقـل إلى سيارة الإسعاف، إلى المستشفى الجراحي رقم"٥".

أحد الجنود تقدَم صائحا:"اسمعوا إعادة البيـان السـابع يا أفندم".

"أيها المواطنون... نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول الجبهة، وقد تم الاستيلاء علـى معظـم الضفة الشرقية، وتقوم القوات البحرية الآن بحماية الشواطئ والساحل الشمالي بسيناء"...

هنا القاهرة...

أما وقد بدأت معارك الدبابات مـع تطـوُر العمليـات، شعرنا بذلك مباشرة من خلال عـدد المصـابين ونوعيـات الإصابة. بمضي الوقت انشغلت عن أمـور كثيـرة كنـت أحرص عليها في البداية، كنت أسأل المصاب عن تفاصـيل المعارك ونتائجها، ومن أي الوحدات هو وأين كـان موقـع

إصابته ؟، وغيرها الكثير من الأسئلة التي قد تتصل أحياناً ـا باسم العائلة ومن أي المحافظات يكون وعملـه الأصـلي... بل سمعت شكوى أحدهم وهو يدعو ا أن يعيش حتى يرى ابنه البكر، وقد ترك زوجته في آخر إجازة وهي تعاني آلام بشائر المخاض. الوحيد الذي حافظ على تلك العادة هو العـمُ مرزوق الذي استقبلني في صـباح الثـامن مـن أكتـوبر، وفي رأسه فكرة وحيدة:"اسمع يا طـارق... علمنـي كيـف تعطي الحقن ؟". لم تعد هناك فسحة من الوقت حتى يقنعنـي بفكرة أو لأقنعه بعكسها، إلا أنه حرص على إقناعي بسرعة مبررا طلبه، فقال:

- "يبدو أن الهجمات المضادة ومعارك عمـق سـيناء شرسة، مثلما نصرنا ا في العبور وتحطيم خـط بـارليف، يقدرنا في عمق سيناء". كل ما حرصـت عليـه مـن بعـد أن ألفت نظر الرجل إلى أهمية التطهير، وخطـورة تلـوث مكان الحقن أو الحقنة نفسها. أما طريقة وخز الحقنة فقد كان من الذكاء بحيث تابعني وتعلم الوخز حالاً... خاصـة أننـي لم أتردد كثيرا بل سعدت بمعاونته لنا.

بعد الثانية ظهـرا زاد عـدد المصـابين وتنـوَعـت الإصابات، لعلها كانت أكثر من أي يوم سابق بالنسبة لنقطتنا الطبية، هذه المرَة حرصت على سؤالهم. المصاب تلو الآخر بحسب درجة إصابته وتحمله، يطول الحوار أو يقصر.

"من أين يا وحش"

"من جبل المر"

"أين ؟"

"على عمق ١٥ كيلو مترا يا فندم"

"هل كانت معركة كبيرة"؟!

"لقد كـان الموقـع الـذي يضـرب مدينـة السـويس وبور توفيق والزيتية بأبو جاموس"

"رأيت أبو جاموس"

"مدافع عيار ١٥٥ مم، و ١٧٥ مم. الموقع هـو قيـادة منطقة وهام. عندك شاي... محتاج شاي صعيدي أنا كنـت صائما... ربنا يسامحني". اندفع العم مرزوق وحده لإنهـاء هذه المهنة، وبسرعة عاد ومعه الشاي يقدمه إلـى الجنـدي تلو الآخر محرضا على الإفطار:

"المفتي أباح الإفطار، توكل على الله ... في السفر رخصة، وفي الحرب رخصة !!"

بقي كوب واحد، ابتسمت له وقلت عمدا:

"كوبك يا عم مرزوق"

"لا سمح الله ... أنا صائم"

فابتسمنا، قال نبيل:

"تحرض الناس على الإفطار وتصوم أنت، عموما الحقن تفطر"

حدَق أحد المصابين بحدَة ثم قال:"للعلاج، ليست حقن تقوية ولا هي...".

انشغلنا ثانية وقد بدأت معارك جديدة بين المصابين والعم مرزوق وبعض أفراد النقطة حول مشروعية وحرمانية الحقن مع الصيام، قبل أن يهدأ الحال ويتضح الموقف تماما، اندفع أحد المصابين وهمَ واقفًا، قرَر بينه وبين نفسه العودة إلى جبل المر.

اقترب منه نبيل مستفسرا حازما معه:

"ليس قبل يومين أو ثلاثة حتى يلتئم الجرح قليلاً وتنتهي حقن المضاد الحيوي".

"الآن يا فندم... أعطني الحبوب بدلاً من الحقن".

"الحقن أسرع وأقـوى .. أنـا الطبيـب وأنـا الـذي أقرر"..."الشفاء من عند ا   أنت لا تعلم الحالة هناك".

"هل أنتم من هناك... كلكم"

أجابوا بالإيجاب، دهشت وهو مـا دفعنـي أن أسـمع تفاصيل ما حدث... فقال أحدهم باسما:

"ليس قبل أن تعطيني سيجارة"

وبدأ يتحدث بهدوء:

"الحرب علمتني تدخين السجائر السوبر، غالية عليَ... الآن توزَع علينا بالمجان، وبعـد الحـرب سـأدفع ثمنهـا من عرقي... الخلاصة".

قاطعته:

"السوبر توزَع على الضباط يا وحش... وأنت جندي لك علبة كيلوباترا كينج سايز....."

"النقيب سامح ا   يخليه، لا يدخن ولا يشـرب الشـاي، يعطيني حصته كل يوم منذ أول يوم في الحرب". تدخل نبيل آمرا الجندي بالحديث ورمى إليـه بعلبتـه السـوبر، فقـال المصاب:

"وصلت الأوامر للعميد محمد الفاتح بـاحتلال الجبـل، جبل المر، تحرّك اللواء الميكانيكي كلـه نحـو الهـدف... الجنزير عمل زوبعة مـن الرمـال ولا ريـاح الخماسـين أو أمشير.

ربك والحق انهالت علينا صواريخهم وكأننا في جهـنم نار ودخان وحرائق وقنابل من كـل جانـب. لأنـي كنـت من أفراد سيارة القائد تابعته وجدته بدأ يسأل السـادة قـادة الكتائب، الرجل شايف بعينيه الهدف على بعد كيلو متـرين لا أكثر... كان ردُهم بحزن:

قال قائد الكتيبة الأولي"أنا محاصـر الآن مـن جميـع الاتجاهات... ما التصرُف"؟ ؟ قال قائـد الكتيبـة الثانيـة: "أنا مترجل الآن بعد تدمير الآليات"!!

قال قائد الكتيبة الثالثة: أنا بالخلف متابع جاهز يا فندم". العميد الفاتح ألقى سماعة التليفون اللاسلكي وقف في السيارة المكشوفة مناديا في مكبر الصوت قائلاً:

... ا أكبر، ا أكبـر... النصـر والعـزَة للإسـلام يا شباب مصر". ثم نزل من السيارة، تابع الصيحات سـائرا على قدميه، نزلنا خلفه. بدأ يصعد الجبل، طلعنا خلفه سـيرا على الأقدام أيضا... كلما لمح أحد الرجال يشير إليه ليتابعنا بعد أن غرزت السيارات في الرمال الناعمة.

كـان بجـواري ضـمن مجموعـة القائـد الجنـدي محمد أبو خليفة حاملاً قاعدة إطـلاق صـواريخ، والنقيـب "سامح محمود" حاملاً صاروخين على كتفيه، الكـل حولنـا من كل جانب... من يلمح العميد يتابعه ويسير معنـا حتـى قابلنا المقدم "على حسن" بعد أن كان أقـرب قـادة الكتائـب للهدف، التحق بنا وتابع، أصبحنا على بعد حوالي كيلو متـر واحد من الهدف. الدقائق تمرُ سنين، المهـم ربنـا قـدَرنـا ووصلنا وعبرنا القمة واجتزنا الخط المحدد. دون أن أشـعر وجدت الدماء تحت قدمي، جلست على الرمال لفتها وعينـي عليهم، لفتها بسرعة وتابعتهم وهم يتربصون لدبابتين للعـدو

تقدّمتا نحونا... على مسافة حوالي المـائتي متـر صـرخ العميد:

"اضرب يا سامح".

سقطت الصواريخ على بعد ثلاثمائة متر بعد الـدبابتين لأن أقل مدى خمسمائة متر... ويشاء ربك أن قائد الـدبابات يتوهم أن كل القوة معهم صواريخ... هرب !

تصدق با هربهم طمعنا فيهم أكثـر، انـدفعنا خلفهـم ولا ندري ماذا سنفعل لو عاودتا مهاجمتنا والاتجاه نحونا ؟! المفاجأة الأكبر أننا لمحنا اثنتي عشرة دبابة للعدو تدير جهـة مدافعها للخلف وتعـدو بعيـدا هـي الأخـرى. المفاجـأة جرأت"محمـد خليفـة"، جـري وضـرب آخـر الـدبابات بسلاحه"آر. بي. جي" فيصيبها، جري مثل العيال الصـغار لأمهم... جري وحضن العميد الذي أمر له بترقية فـورا... أنا نفسي جريت لمحمد ولم أشعر بإصابة قـدمي، حضـنته بعدها لم أشعر بنفسي إلا وأنا في الطريـق إلـيكم هنـا"... ثم طلب سيجارة سوبر، ذكره نبيل أنـه أخـذ منـه العلبـة بكاملها !! لا أدري سببا لمثل هذه الإشارة العاجلة أن ألحـق على كتيبة المشاة القريبة المواجهة لحصن كبريت.

من قبل عندما وصلت إشارة إلحاقي إلـى المستشـفى الخامس من كتيبة المدفعية وعندما أخبرني الصول صابر... يومها ارتعشت شفتاي، لم أنطق، ابتسم الرجل المحنك، ربت على كتفي:

"الأيام دوَّارة يا بني... هكذا الجـيش يملكنـا ونحـن لا نملكه"... الآن عدت محنكًا خبيرا بشئون أسـرار الحيـاة العسكرية، لم أبك هذه المرة ولم أفرح.

آخر ما فعلت وقبل أن أعتلي السـيارة التـي سـتقلني حالاً... عانقت العمَّ مرزوق بشدَّة. قال وهو يمسح دمعـات من على خديه:

"صدَّقني يا بني يا طارق... أنـا لـم أبـك ومراتـي مسافرة... وهي مهاجرة وسـيباني، صـدَّق". ولـم يقسـم بالطلاق... ابتسمت معانقًا.

الثيران تلتهم التورتة

البرج الخشبي البعيد فوق حصن كبريت علـى الضـفة الشرقية وحتى التاسع من أكتوبر... بـاقٍ. داخلـه الجنـدي وقد علق النظارة المكبرة حول رقبته، بحركة دائرية يرصـد ما يحدث على الجانب المصري..."إنه بالشدّة الكاملة، لـيس بالمايوه... كما كان في فترات سابقة". قالها أحدهم لم أتعرّف عليه بعد.

انقضت الليلة الأولي لي معهم... بعد أن قدّمت نفسـي إلى العقيد "إبراهيم عبد التواب" قائد الكتيبة المشاة الذي أمـر بتجهيز واستكمال النقطة الطبية وتبليغه بتمام الموقف حالاً... أفراد وحدتي الجديدة مشغولون... إما فـي تجهيـز الشـدة الخاصة بالعبور أو إعداد الشاي أو في متابعة أخبار القتـال وما يستجد من حولهم. انتهى بي المقام مع مجموعة جديـدة سرعان ما بدأت أتعرّف عليهم... معهم تناولت وجبة جافـة في العشاء...

"أين أنت يا عم مرزوق... وأين أكلاتـك السـاخنة"؟. نطقتها بصوت عالٍ، انتبهوا لي، سألوني أن أتحدّث أكثـر،

ضحكت وحسب، تمنيت من قلبي أن أنام بعد سماعي ذلـك الشخير المنتظم لأحدهم بجواري، لم أفلح إلا عنـدما دخـل أحدهم بعد الثانية عشرة ليلاً مستفسرا في دهشة:

"لماذا لم تنم... يا ليتني رقيب طبي... مثلك ؟".

لم أفهم ماذا يعني !

تابع:

"يا عم أنتم سلاح الكعب العالي، ومرفهون من أول يوم خدمة لكم في الجيش وحتى آخر يوم"

"لماذا وأنا معك في نفس الملجأ والوحدة والهم ؟!".

"حتى الأفراد الملحقة علـى الوحـدات المقاتلـة، لهـم إجازتهم الخاصة وعلاقاتهم الخاصة بقادة الوحدات... وكلـه ينفع كله"..."هذا قبل الحرب... الآن ماذا ترى ؟".

"حتى الآن لم تبدأ الحرب... ربما سنرى... ربما !"... دهشت، سألت عن اسمه قال:

"تسألني عن اسمي وكأنك تحقق معـي... ومـع ذلـك أنا"جابر حقي". ابتسمت، سرعان ما دار حوار طويل. أخيرا

بهدوء الواثق مدَّ يده داخل جوال ملقى في أحد أركان الملجأ قبض على شيء ما قدَّمه لي، آمرا:

"خذ هذا"

"ماذا ؟".

"بصلة... بها ستحل مشكلتك وسوف تنام حتما". نجحت الفكرة المجرَّبة... نمت...

استيقظت باكرا... ولأني نـائم بملابسـي وحـذائي... اندفعت خارج الملجأ، اكتشف العالم من حـولي كعـادتي... الحركة والاضطراب سمة الرجال والأشـياء مـن حـولي. انقضت بضع ساعات حتى سمعت دفعة طلقات من أحد أفراد مجموعة قناصة الكتيبة، ولأرى سقوط الجندي المعتلي البرج الخشبي... يسقط من علٍ إلى الأرض. علت الهليلة من أفواه الجنود همس أحدهم:

"يبدو هذه المرَّة لن نحاكم يا جماعة !"

سردوا وشرودا معا فيما حدث مع"الشيخ حسـن"، منـذ حوالي السنة يومها أطلق عيارا صائبا إليهم... إلـيهن وقـد تجمعوا معا على رمال الضـفة الشـرقية للقنـاة بالمـايوه من رجال وفتيات يلهون باطمئنان غريب، يومهـا اشـتعلت

الجبهة بالتراشق المتبادل بين الجبهتين ثم صدرت الأوامـر العليا بمحاكمة الجندي المتهور الذي أطلق النيران دون أوامر من القادة، وانقضت فترة المعاقبة بالحبس لمدة سـتة أشـهر داخل سجن الوحدة، عامله العقيد خلالهـا أفضـل معاملـة، لعله لم يفعلها وهو بغير حكم الحبس !!

همست إلى نفسي:

"إذن هو "حسن" الذي تنبأ بأنه لن يحاكم مـن بعـد"... ثم صمت.

خبرتي في كتيبة المدفعية علمتنـي أن موقـع جنـدي الاتصالات أفضل الأماكن كي أفهم ما يدور من حولي، كان لي ما أردت، سمعت ما كان داخل الحصن الكائن أمـامي... فهمت هرج، ومرج، صراخ، الجندي ينقل لقائده خبر سقوط جنود المراقبة بالنظر.

انتقلت إلى جملة الجنود من حـولي أسـالهم إن كـانوا في حاجة إلى شيء مني، كلهم ما بين مقطب الجبهة، لاهث، ولسان حالهم يطلب العون والرجاء من أجل الحبيب النبي... الشـدّة وجاكيـت النجـاة والتسـليح الشخصـي... أثقـال لم يستطيعوا منها فكاكًا، في حملها مشقة فما بـال الحركـة

بها في الرمال الناعمة وتنفيذ المهام العاجلة. حملوا القـارب المطاطي الثقيل، نفخوه، أنزلوه على مياه القناة.

كلهم يسعون إلى تنفيذ المهام التي يعرفونها، ينبطحـون أرضا إذا ما هبت غارة جوية، وإذا ما هامت الدانات فـوق رءوسنا ثم يعودون إلى سابق حـالهم. ينهضـون يقـرءون الصمدية والفاتحة والشهادتين، والمسيحي يقرأ أبانـا الـذي في السماوات.

مجموعة رفاق ليلتي الوحيدة معا..."حسين" وحده يعلق ساخرا... قد يبتسم الرفاق خاصة عندما انزلـق "جـابر"... وهو يندفع نحو القارب المطاطي، انزاح وهو يحاول القبض على القارب بكلتا يديه، تقوَس ظهره المثقل بالشدَة فانفرجت ساقيه ليسقط كزرع البصل... جذبوه حتى لا يغرق في شبر مياه؛ فهو مثلهم لا يجيد السباحة وكأغلب أفراد الكتيب !!

فورا استقرَ حسين وسط رفاقه بالقارب، قـال بصـوته الجهوري:"هي دانة عليها اسـمك... أو رصاصـة مكتوبـة لك... مهما حاولت هو نصيبك"!

انزلق القارب الأول ثم الثاني فالثالث... وبـدأ عبـور الكتيبة، اشرأب حسين برأسه موجها حديثـه إلـى القـارب

المجاور:"اسمعوا... نتفق إما نعيش معا أو نكون معا مكـان ما نكون". زملاؤه، رفقاء الملجأ الباقون"صـيام" و"أنـدريا" و"ربيع" و"جابر"، كلهم معا في قارب واحد. القوارب تتجاور وتتلاحق، يحملون قاذفات اللهب، قنابل الـدخان والأسـلحة الميكانيكية، سلالم من العصي الصغيرة والحبـال، ذخـائر ومعدات، تقدّمهم جميعا قارب يحمل العلم المصري، العقيـد أمر بحمل علمين في قاربين آخرين.

كنت ضمن القوارب الأخيرة التي حطت علـى سـطح المياه مع "سلامة" بأجهزتـه السـاحرة، نسـتمع ويتـرجم وقد يصادفنا الجنود ينقلون الصـورة إلـى قائـدهم داخـل الحصن... يقولون:

"المصريون ينزلون قـوارب كومانـدوز فـي الميـاه المواجهة لنا مباشرة"..."المصريون يعبرون الآن" ، "القوارب مليئة بجموع المشاة"..."يا سيادة القائد أرى بعـض دانـات مدفعيتهم نحو موقعنا"،"يا إلهي... القـذائف تسـقط قريبـة منا"..."يبدو أنهم يصححون ضـرباتهم، القـذائف تقتـرب أكثر"،"النيران تقترب... تقتـرب". قائـدهم يـأمر بخـروج

الدبابات فورا لمواجهة القوات المصـرية، التـي شـارفت على الوصول إلى الضفة الشرقية.

لمحت زورقين على مقربة منا، وقفا وأطلقا دخانًا كثيفًا أزرق... ربما أسود ملأ المكان بظلمة ووحشة، جعل الجنود يتهامسون، أحدهم، أشار إلى القاربين:

"إنها مصرية يا جماعة لتغطية حركة القوارب ونحـن نعبر". مازلت أتابع، أسمعهم أكثر انفعـالاً يبلغـون قائـدهم "قائد الحصن":

"سيدي القائد، إن المصريين أسـقطوا قـوَات مظـلات من طائرات نقل على مسافة عشرة أميال... عشـرة أميـال داخل سيناء فيما وراء الحصـن... أرجـوك بلـغ قيادتنـا الأعلى... أرجوك... هل تسمعني ؟!".

الجندي لم يسمع ردا... صرخ في البوق محذرا قائده... ثم تساءل:"ولماذا لم ينجح سلاح الطيران الإسـرائيلي حتـى الآن"؟؟

ولم يسمع ردا أيضا !!

لم تخل تلك اللحظات من منغصات ولحظات فكهـة !! هدرت بعض الدانات والطلقات فيما بين القوارب وحولهـا،

رذاذات المياه غطت وجوههم يمسحونها ثم يتابعون بحركـة آلية سريعة، كلهم إلا "صيام" الذي انشغل كثيرا فـي مسـح زجاج نظارته. نهره "حسين" أن يعاود التجديف... ردَ قـائلاً وهو مازال على حاله:

"لو ابتلات... بسيطة، المصيبة أن تكسر"!!

لا حقه أندريا:

"ليس وقته يا صيام... شد ذراعيك يا رجـل"... عـلا صوته أكثر عندما لمحوا قاربين ينقلبان وقـد علـت الميـاه المتماوجة حتى صعب معها التجديف المنتظم، لمح حسـين أحد الجنود على مقربة من قاربه يسبح ويحاول، مدَ إليه يده بالمجداف؛ حتى يعاونه على اعتلاء القـارب المطـاطي... رفض ! قال:

"أنا دمياطي يا وحش سوف أصل قبلكم... أنا صياد"... ظل يسبح وحده بين القوارب التي سريعا ما تتجاوزه نحـو الشرق... ابتسمت عفـوا عنـدما سـمعت جنـود الرصـد يواصلون إبلاغ الموقف لقائدهم:

"حاملات الجنود المدرَعة بدأت تعبر الآن مـن هنـاك، إنها تعبر فعلاً"..."يا لها من كارثـة، الكثيـر مـن الجنـود

المصريين يقفزون على الضفة الشرقية، ينطلقون. بعضـهم يحمل قواعد للصواريخ الصغيرة الحجم...".

القائد "ميبرك" يحاور نائبه "شوكي":

-"ماذا تعني يا ملعون ؟".

-"الكوماندوز المصريون الآن حولنا من كل جانـب... أجزم أنهم الآن في عمق عدة كيلو مترات من شاطئ القنـاة الشرقي... أكرر، شاطئ القناة الشرقي ومـن موقعنـا هـذا – الحصن في كبريت –"

-"إذن آمرك أن تحرك الـدبابات للمنـاورة أحـذرك أن تصابوا، استروا أنفسكم، انتظر منـي أوامـر جديـدة". ثانية فتح قائد الحصن خط الاتصال مع قيادتـه الأعلـى... أخبرهم بالموقف تماما؛ فسأله القائد الأعلى:

- هل أنت واثق الآن أنها المشاة المدرّعة ؟...

- أكيد واثق !!

- إذن انتظر حتى أعيد حساباتي !

ما كان من قائد الحصن إلا أن بصـق علـى الأرض، أغلق الخط... لهنية لم أسمع إلا صوتًا داخلي أنا...

-"هل ما أنا فيه الآن هي لحظات العبور !!"...

-"كم من الليالي قضيناها نسأل ونستفسر ونتشكك أننـا سنعيشها يوما... قلنا ستكون لحظات الهلاك والمـوت... آه، هو الموت ذلك الذي لم يخطر على بالي منذ اعتليت القارب ولا أدري لماذا ؟!... قد تنسينا المهام الصـغيرة المتلاحقـة أشياء جليلة نصنعها ولا نعيها، وهو ما جعلني أقترب برأسي من رفيقي المنهمك في جهازه:

"هل تفكر في الموت ؟!

الرجل رمقني بنظرة لم أشهدها من قبل، ولـم ينطـق. سألت رأسي، "هل أنا رومانسي أم محبول"!

شغلت نفسي بمتابعة الرفاق من بعد... الأفراد يعتلـون الساتر الترابي في أقل من عشر دقائق، لمح صـديقه ربيـع بلا حذائه – البيادة – زميله تابع الصعود حافي القدمين ولما نظر إليه عقب ربيع جادا:

"أنا لاعب كرة قديم... كنت ألعب بلا حـذاء"... جـاء دور نقل الذخيرة والعتاد. أقام مجموعـة الأفـراد كـوبري آدميا... يحملون الصناديق المختلفة الأحجـام مـن أحـدهم

إلى ثانٍ إلى ثالث وعاشر حتى أعلى الساتر والرمال الناعمة جعلت أقدامهم تغرز فيها؛ مما زاد مشقة الحركة والصعود.

انقضت فترة حتى تمكن كل أفراد الكتيبة من العبور... فضلت أن أكون على مقربة من العقيد الذي بدأ فورا في توجيه مجموعات الأفراد للسيطرة المباشرة على النقطة الحصينة. واحدة من تلك المجموعات – مجموعة النقيب بسطويسي – الذي اتصل حالاً بالقيادة:

"أنا أسمع صوت دباباتهم من جهة اليمين، وأيضا جهة الجنوب الشرقي يا فندم".

عقب العقيد:

"مهمتك عرقلة وتدمير هذه الدبابات، كم عددها ؟".

"حوالي خمسة يا فندم ؟".

"إذن بتشكيل ثلاث مجموعات اقتناص، احتلوا مربض الدبابات المواجهة لك... نفذ".

"تمام يا فندم... عِلم".

انقضت عشر دقائق، خلالها أشعل العقيد سيجارتين حتى استقبل الإشارة التالية:

(تمام يا فندم... تم احتلال المربض).

"تصرَّف حسب الأحوال لتنفيذ المهمة... ربنا معكم".

"تمام يا فندم... عِلِم".

لم يكن موقع العقيد إبراهيم يبعـد كثيـرا عـن موقـع المعركة التي سرعان ما خمدت لتبقى الرمال الناعمة فتـرة أطول عالقة وتحركها الرياح.

أخيرا وردت الإشارة:

"تمام يا فندم... تـم تـدمير دبـابتين، هربـت بقيـة الدبابات..."

العقيد بلهفة يسأل مستفسرا:

:"أين بسطويسي... أين النقيب قائد المجموعة"؟

ولم يسمع ردا... صرخ في الجهاز:"لمـاذا لـم أسـمع ردا... حول ؟".

ورد الردُّ بصوت مختنق خفيض:

"استشهد يا فندم"...

بعد فترة صمت على طرفي الجهاز اللاسـلكي سـمعنا المتحدث يتابع:



"مات النقيب فوق إحدى الدبابات وهو يحاول فتح برجها لإلقاء قنبلة داخلها"؟...

أخيرا علق العقيد قائلاً:

"حافظوا على موقعكم..انتظـروا تعليمـات جديـدة .. حول".

"تمام.. يا فندم.. عـ.. ـلـ...ـم..". لم أكـن قابلـت النقيب من قبل، ربما ما أشعر به من حزن يرجع إلـى أنـه أول من سمعت باستشهاده في موقعي الجديد.

خلال تلك الفترة التي توحي بالغموض للوهلة الأولـى لم أكن أعرف كيف سأمارس عملي بالضبط، بشكل بسـيط أعدو إلى من ألمح أنه يعاني من شيء ما.. انتابني شـعور بالخجل أن أسأل العقيد.. كيف سأعمل؟! أشرت إلى رفيقـي مسئول الاتصال أن يدلني.

هذه المرة لم يدهش ولم يرمقني بنظرته السـابقة قـال في هدوء المحنك:

"الآن.. ليس وقتـك، انتظـر، حـالاً سـيأتي دورك.. لا تقلق".. خشيت أن أكون متقاعسا عن عمل يجب أن أقـوم به...

إذن هذه هي الحرب، الأفراد وجها لوجه مع المـوت.. أليس كذلك؟!.

لم أخاطـب أحـدا ولا أنتظـر ردا.. تابعـت بمزيـد من التركيز ما يصلنا من خلال أجهزة التصنت، أن جنودهم داخل الحصن أصابهم الهلع من ذلك الدخان الأصفر الـذي يغزو حصنهم المنيع!

قال أحدهم:

"إنها غازات سامة.. اهربوا.. اهربوا جميعا".

ثانٍ يؤكد خوفه يقول:

"نعم.. علينا بالهروب من ذلك القبر الفخ".

ثالث: "ما ألعنها تلك الأسلحة الغامضـة.. المصـريون يستخدمون الغازات السامة".

الأول: أنا مستعد للموت بالرصاص.. أمـا الغـازات.. إنني أختنق أكاد أشل.. ساعدوني".

سمع صوت طبيبهم يعلو ويقترب:

"حافظوا على هـدوئكم، إنهـا سـتائر مـن الـدخان، المصريون يحاولون اقتحام الحصن... حالاً سـوف يـزول أثرها..إن المصريين يحاولون غزونا أو على الأقل تحطـيم روحنا المعنوية صدقوني..."عارضوه...

أحدهم علا صـوته أكثـر، تشـاجر معـه، صـرخ في وجهه:

"أنت تحاول أن تحصل على وسام البطولـة بأرواحنـا وهكذا أنتم يا رجال السلاح الطبي... تدعون إلـى الهـدوء وفي رءوسكم الحلول المناسبة للوقت المناسب".

بانفعال تابع الطبيب:

"بل هي الحقيقة... صدقوني جميعا".

ثم أعطى الجندي الهـائج قرصـا وطلـب لـه كوبـا من الماء، عاد يقول للبقية من الجنود المذعورة:

"الآن عودوا إلى أعمالكم حتى لا نُهزم بالخوف... قبل أن تهزمنا أسـلحة المصـريين". هـدَأت كلمـات الطبيـب من ثورتهم خاصة، وقد خفت حدّة السـعال الجـاف الـذي انتابهم، وكذا وضحت الرؤية بينهم... وضح خروج الطبيب مندفعا خارج الحجرة بحيث اختفى صـوته فجـأة. بـالرغم من كل ما أشعر به وأراه في الواقع فإن الجنـود مـن كـل الاتجاهات نحو الحصن يعرفون ما لا أعرف وينفذونه.

الجنود يزحفون على الأرض الرملية، انتشروا خـارج حدوده الملغمة والتي تُقدَّر بأكثر من ثلاثمائة متر عمقًا حول

الحصن من كل اتجاه خلال تلك الفترة تجرَع قليلاً من المياه، وبعضهم بال في حفرة قريبة بجواره، ومـنهم مـن عجـز عن ذلك بالرغم من إحساسه بالرغم في التبول... أغلبهم قرأ الشهادتين لأكثر من مرة.

أما "صيام" فقد أشار إلى جانبه الأيمن، فهم "حسين" أنه المغص الكلاوي المعتاد، فهاج فيه:

"هل هذا وقتـه، انتظـر حتـى تمـوت شـهيدا بـدلاً من المغص الكلاوي"..."شربت كل الميـاه مـن زمزميتـي، أعطني زمزميتك".. "خذها ثم ضـع هـذه الزلاطـة تحـت لسانك"... قبل أن يكف الحوار معه، أدار وجهـه متسـائلاً إن كان صديقه تناول المسكنات فوجيء برد صيام قائلاً:

"نسيتها في الملجأ، في المؤخرة"!!

مهمة المجموعة الأولى ومنها حسين ورفقـاؤه رشـق المزغل الغربي حتى يكف جنود المزغل عن توجيه طلقـات صائبة، لكنه مازال يتعامل مع القوة المتقدمة، مازال يرشقهم يصيبهم الجندي تلو الجندي، على غير توقع نهـض حسـين من موقعه، زحف ببطء ولكن بانتظام على ثقـة أن الثغـرة التي فتحها زملاؤه سهلت تنفيذ ما فـي رأسـه، تقـدَمهـم

وقد أسرع من زحفه واندفاعه... زملاؤه لم ينطقوا، انتظروا النتيجة، يبدو أنه أصيب قبل أن يصل إلى هدف ما... هدف في رأسه هو !!

مدفعه الرشاش يعمل بالرغم من بطء حركته فهي ثابتة، وكانت المفاجأة الجديدة، ارتمى حسين في مواجهة المزغـل على غير تلقين وبدون أوامر وعلى غير التوقع أيضا، فعلها حسين ليصمت صوته العالي الجهوري المتميز بسـخريته... بقية المجموعات المتابعة لم تضع عمله سدى... اندفعوا عبر الممرات الحلزونية المحاطة بالسلك الشائك الملغم !!

واندفعوا... اندفعوا أفرادا وجماعات... كلهـم انـدفعوا من بعده... منهم من مات حالاً وقبل أن يعتلي السلم الحديدي الحلزوني القريب من المزغل الهامد وقد بـدا وكأنـه نحـو مقبرة.... منهم أيضا من نجح في اعتلاء السلم ليعتلي سـلما ثانيا وثالثًا، وتقدَم حاملو قذائف اللهب وقنابل الدخان.

الرمال اشتعلت، الحدائد احترقت، الانفجارات الأرضية هنا أو هناك ما زالت...

لا يبدو أن الموت ممكن أن يكون فـي الحـرب، هـو في شيء آخر، وأنه يتخير هذا الجندي، ويترك ذاك وكلهـم

نحو الهدف. حسين اندفع بإرادته نحو هلاكه، أحـد الجنـود عبر مسافة تصل إلى مائة متـر داخـل حقـل ألغـام دون أن يعلم، لعله يعلم ولا يعبأ ولم يمت، أو يهاب الرصاصـات الطائشة، تنال هذا في رأسه وذاك ترتد من على خوذتـه... نسي صيام المغص الكلوي، ادفع نحو حسين وسحب اللوحة الألومنيوم من القايش.

قرأ الشهادتين، قبل أن يتركه حرص أن يكور أصـابع كفه اليمنى إلا... إصبعه السبابة... ثم تابع دون أن يبكي.

بمضي الوقت فهمت أن قائـد الحصـن ظـل ينتقـل من نقطة إلى أخرى داخل الحصـن ليـرى بنفسـه حقيقـة الموقف. عاد إلى جهاز اللاسلكي موجها حديثه إلـى نائبـه شوكي ثانية:

"شوكي"... هل تسمعني ؟!

"ماذا ترى الآن ؟... ما الموقف فـي تقـديرك الآن ؟".

بهدوء ردَ شوكي قائلاً:

"إننا الآن أمام خطوط المصريين بل نحن تورتـة عيـد الميلاد التي سيأكلونها الليلة؛ فقد أحاطونا من كل مكان".

"هل تعني ما تقول"؟!

"إنها الحقيقة".

"وماذا ترى في قوة المشاة الغازية ؟".

"أرى أن المصريين الآن في عمق سيناء لعـدة كيلـو مترات وكذلك حولنا من كل مكان... سيدي، إننا أمام جحافل بشرية مسلحة... ربما الكتيبة ضمن مهمة أخرى من مهمات المصريين التي عبروا من أجلها"...

هذه الكتيبة من أجلنا نحن يا سيادة القائد، الثور المعلـق في خوذاتهم وفوق رءوسهم مسـتعد الآن لالتهـام التورتـة من على المائدة". عاد القائد ميبـرك إلـى لعناتـه وعادتـه السريعة؛ بصق... فور انتهاء محادثته.

صاح "آفي" جندي اللاسلكي في قائده بفزع:

"وصلتني الآن إشارة بإصابة الضابط "أشول" بإصابات خطيرة، والطبيب يحاول إسعافه بكل الوسائل، كذلك مقتـل جنديين بالمزغل الغربي رقم ٧". ثم قطع حديثـه بصـوت زاعق منفعلاً:

"أرجوك أن تعيد نداءات الإغاثة من القيادات المركزية بعمق سيناء".

نطق القائد أخيرا:

"هكذا الردُ منذ الدقائق الأولي لهجـوم المصـريين... توجد عندنا بعض المتاعب، طائرات الميج المصرية ضربت المعسكر وقُتِلَ عدد من الجنود وسكرتيرة القائد العام... نحن الآن في انتظار القوة التعبوية من العمـق"... بعـد إلحـاح ومعاودة الطلب بفتح الاتصال بالقيادة الأعلى، هـذه المـرة جاءت رسالة مختلفة:

"لقد نفذنا عملية لإنقاذ أحد الحصـون الشـمالية لكـنَ الكوماندوز المصريين المحمـولين بـالهليوكبتر أوقعـوهم في كمين وأرغموهم على العودة".

"آفى" بانفعال ويأس ظاهر:

"إذن ليس أمامنا يا سيدي إلا طلب معاونة المدفعية أكيد الضرب المدفعي المركز سوف يربك المصريين".

صوت رنين الجهاز جعلهما يصمتان، استقبلا الرسـالة الجديدة:

"ما هو الجديد لديكم"؟ ؟

"ميبرك عاق بانفعال:

"لا شيء معين هنا، توجد نيران حولنا، نشاهد القوارب المصرية تعبر باستثناء ذلك كل شيء هـادئ، فالمصـريون من حولنا ومن كل جانب !. دخل عليهما طبيـب الحصـن، على غير توقع صاح فـي الجهـاز وعلـى غيـر الآداب والأعراف العسكرية صرخ:

"إنها جهنم دموية.. لا تتركونا... لا تسـتقبلوا رسـائل "شوكي" التي أرسلها إليكم من قبل، أنا سمعتها... فكل شيء عنده على ما يرام... هذا الخنزير فقـد الإحسـاس بـالزمن والخطر... إنه مريض... أنـا طبيـب الحصـن ومسـئول عن حديثي إليكم".

نجح ميرك في سحب الطبيب بعيـدا... عـاد ثانيـة إلى الجهاز المفتوح:"لا أعرف ما يحدث عندكم... مدافعكم لا تضرب... أحيانًا تصلنا بعض الدانات بعيدة عن الهدف لابد من تصـحيح الضـرب". ولمـا لـم يسـمع ردا، بصـق ثم ارتمى إلى جدار الغرفة المجهزة بأحدث أجهزة الاتصـال ثم أشعل سيجارة.

بهدوء غير معتاد تقدَم الجندي "آفـي" نحـو الطبيـب الجالس إلى منضدة صغيرة وقد أغرق رأسه بين راحتيه، قدَم له زمزمية المياه..."تناول بعض الماء". تناول ثلاث رشفات لتعويض ما فقدته من العرق.

فعل مثله ثم جلس إلى جواره متسائلاً:

"با كل هذه الحرب... من الذي أخترعها".

ردَ الطبيب:

"جنون القتال، نعم... أكيد"؟

"وماذا نحصل بعد كل هذه العملية التي لا ندري كيـف سيكون مصيرنا إذا عشنا حتى نهايتها؟!".

"بعد انتهاء العملية سوف تزور أهلك وأولادك".

"بعد انتهاء العملية سوف يكون حصننا هذا في الخطوط الخلفية سنجلس هنا وسيكون أولادنا في القاهرة".

"متي ميعاد الاتصال تليفونيا.. بالمنزل في تل أبيب".

آفي: "من الثالثة حتى الرابعة في صباح اليوم الجديد".

الطبيب:"آه... اليوم الجديد... هو اليوم الجديد إذن ؟".

الجمل يجتر ما في جوفه

الفرحة عبرت عنها كلمتان "الحمد ا ".

بدت وكأنها معلقة... مازالت. بالرغم من نجاح الكتيبة في احتلال الحصن خلال معركة استمرَت ثـلاث سـاعات فقط !. استشهد البعض، أصيب البعض، من عاش... تراوده أفكار أقل ما توصف به أنها فرحة قلقة... ربما لأنها مزجت بالحرمان ممن استشهد وأصـيب، وربمـا لأنهـا مزجـت بالغموض.

كلنا كان يتوقع أن ما حـدث كـان حربـا... وهكـذا الحرب. افتعل بعضنا انشغاله في شيء... أي شيء، وادّعى البعض أنه غير حزين على فراق عزيز... يقولهـا هكـذا: أنا لست حزينًا على موته... إنه شهيد، هم السابقون ونحـن اللحقون... أليس كذلك، هو فعلاً هكذا"؟!

ويظـل يكـرر أسـئلته الاسـتفهامية... الاسـتنكارية الغامضة، وهو ما قاله الأربعة الذين عرفتهم جيدا ليلة الأمس تأكد لهم استشهاد حسين خامسهم... أما وقد انتشرت القـوة

حول الحصن، بأوامر العقيد عدم النوم داخل الحصن؛ خشية أي طارئ:

"إنهم يعرفون أسرار الحصن أكثر منا". كان على كـل فرد أن يحفر لنفسه حفرة خاصة يضع فيها جسده المنهـك، فكانت حفراتهم المتجاورات وقد طلبوا أن أكون خامسـهم... علق صيام مازحا:

"على الأقل عندما نصاب لا نبحث عنك... ولا يحـدث معنا ما حدث مع حسين". حاولت أن أهون علـيهم، فقلـت عمدا:

"ولماذا لو أصبت أنا"؟

لم يفكر كثيرا..."أمرك ... ما هو كلنـا علـى كـف الرحمن". أحدهم قدم إليَّ لمحادثة العقيد في أمر هام. القائـد وحده هو الذي ظل مقيما داخل الحصن، داخل مكتـب قائـد الحصن.

كلما اقتربت من الحصن أكثر بان لي من الخارج وكأنه قلعة أسطورية عالية مغطاة بشكائر الرمـال وتـلال منهـا. تشككت أنه يمكن أن يكون داخلها بشر يعيش خاصة أننـي

لم أدخله منذ انتهاء المعركة، وقد انشغلت كثيرا مع بعـض المصابين وتسجيل الشهداء وحصرهم.

أية حياة داخلها تلك تشي التي بها شـواهدي الأولـي، وهي من الخارج ثلاث طوابـق صـبت بطبقـات سـميكة من الأسمنت المسلح، وقد دعِمت بالقضبان الحديديـة التـي رفعوها من خط السكك الحديدية الذي كـان بـين القنطـرة جنوبا حتى رفح وغزة شمالاً.

خلال اندفاعي خاف الجندي الذي يرشدني إلى مكتـب القائد لمحت بعض الجنود انشغلوا بجثتـين ربمـا لجنـديين إسرائيليين، مررت خلال الدهاليز التي أقتحمها فتقتحمنـي. أظن أنها لا ترحب بي تماما؛ فهذه الروائح التي تشبه رائحة حرق قوالح الذرة، والدخان الـذي جعلنـي أدعـك عينـي وقد دمعت، الفوضى في كل مكان... أوراق، معدات أفراد، واضح أنها شخصية جدا... ماكينة حلاقة... فرشة أسـنان، مجلات مصوَرة وبالعبرية، كروت المعايدة خاصة وقد بدأت المعارك يوم"عيد الكيبـور"، لمحـت بعـض المعلبـات... من المربى والزبد... همست للجندي المرافق:

"مرفهون في الحرب وفي السلام".

أكثر ما لفت نظري أن رأيت ضمن ما رأيـت بعـض الملابس – غيارات داخلية – في لفائف أنيقة جديـدة تمامـا وأيضا ملابس نسائية... إن لم أتأكد من بعد، هل كان داخـل الحصن مجندات أثناء المعركة أم لا ؟

رأيت دهاليز النوم، أخـرى لتنـاول الطعـام، ثالثـة بها مناضد "بنج بونج" تنس طاولة، أجهزة للتسلية والترفيـه وراديو وثلاجات أما الحمامات المبطنـة بالصـاج اللامـع – لعله فضي اللون – فكانـت مجهـزة بصـنابير عديـدة، فيما بعد عرفت أن منها ساخن وآخر بارد.

عندما مررت أمام أحد الدهاليز أشار الجندي المرافـق إليها، كانت العيادة الطبية. ألقيت نظرة سريعة؛ لفت نظـري فيها الإمكانات المتاحة للطبيب المعـالج – عبـوات الـدماء والجلوكوز والبلازما، أيضـا معـدَات التصـرُف السـريع مع حالات الكسور، والجبائر المتعددة الأشـكال والأحجـام، أجهزة معملية بسيطة وهامة.

لسان حالي يقول:

"هؤلاء الناس خططوا لإمكانية الحياة والبقاء داخل تلك الحصون لأسابيع طويلة، لعلها لعـدة شـهور دون احتيـاج لإمداد خارجي سواء طبي أو حياتي معيشي"؟!

تذكرتك يا نوفل... تُرَى أين أنت الآن ؟... يوم دخلـت علينا الملجأ حاملاً كتابا صغيرا، بعد القبلات لاحقه صلاح:

"ارحم عدسة نظارتك"... سألناه عما يحمل، ردّ باهتمام كعادته:

"الحقيقة كتاب خطير جدا". فورا وقف صلاح كعادتـه عندما يشعر أننا سنتحدث في موضوع ما لا يتعلق بالنساء !

"أنا عليّ الشاي... الأهم".

تابع نوفل وهو يقلـب أوراق كتابـه... كأنـه يبحـث عن نقطة البداية المثيرة وقال:

"إنه من تأليف موشى ديان وزير الـدفاع الإسـرائيلي خلال حرب ٦٧ وما بعدها... اسم الكتاب...

"خريطة جديدة وعلامات مختلفة" المهم المؤلف يقول إنه في عام ١٩٤٨ كنا ١٦٠ ألفًا، واليوم نتحرك نحو اسـتكمال المليون الثالث، وتلك العملية لم تبلـغ نهايتهـا بـأي حـال وعلى الجيل الحالي أن يـؤمن بضـرورة حشـر الشـعب

اليهودي، وأن يبذل كل ما في طاقته للتوسـع والاسـتيطان ولا تقولوا هنا نهاية المطاف.

علينا أن نتذكر هرتزل نبي الصهيونية؛ فـنحن اليـوم منتشرون من قناة السويس حتى مرتفعات الجـولان... إننـا سنتقدَم مرحلة نحو تحقيق الأهداف الكبرى".

وهنا ألقى نوفل بالكتاب، صاح:

"فهمتم يا جماعة ؟!".

طال النقاش من بعد، ابتسم صلاح وتحدَث لأول مرة:

"الظاهر إنكم نسيتم تلك الجدران التي حولنا والتي هـي قفص القرد والمسـمى ملجـأ أفـراد... هـذا ؟!". وأشـار إلى جدران الملجأ العارية الجرباء بحديدها الصدئ ورائحـة هوائه العطنة.

"الآن فقط أستطيع أن أردَ عليك يا أيها الصديق...

نعم... لم ننس !!"

تأكد ما دار بخلدي فور دخولي غرفة القائد، لـم تكـن غرفة تقليدية، لمحت تليفون، جهازا لاسلكيا، جهاز راديـو،

خزائن حديدية، خرائط، تفصيلية، بعض النمـاذج الهيكليـة للأسلحة الأساسية. أشدُ ما لفت نظري تلك الخريطة الكبيـرة المدلاة على الحائط المواجه لمقعد المكتـب؛ إنهـا خريطـة إسرائيل الكبرى.

لعلني الآن فقط بدأت أشعر بشيء جديـد؛ يبـدو أننـا أنجزنا حقًا شيئًا يستحق الفرحة... لمـاذا نقلـل مـن شـأن ما أنجزنا هكذا ؟!! طالت نظرتي إلى الخريطة، تساءلت:

"لماذا وضعها أمامه وليست خلف مكتبه كما هو الشائع في وضع الخرائط"... تأكدت أنها لم توضع للتزين أو كحلية للرؤية، تأكدت مدى خطورة الكتاب صغير الحجم ؟. حـالاً تفرَغ العقيد لي، نهض فورا، سـحبني مـن يـدي، أشـار إلى هناك حيث العيادة الطبية:

"الآن انقل عملك ها هنا فورا... هاك عملك، شد حيلك، هذه مهمتي معك... أما مهمتك فأنت تعرفها". تركني، دخلت وحدي العيادة، بسرعة بدأت فـي تنفيـذ تعليمـات القائـد، وامتلأت العيادة عن آخرها بالمصابين بعد أن كنت مبعثـرا معهم في أماكن عدّة، وبعد أن كانوا مبعثرين فـي أرجـاء المكان، شغلت كثيرا حتى الإرهاق الجسدي المنهـك حتـى

انقضى الليل علينا ها هنا في كبريت؛ فتلاشت ملامح الأشياء والأرض والسماء، إلا من فرقعات فضـية متلألئـة فـوق رءوسنا، وقد فشلت جميعها في رشق الظلمة هـي والقمـر المتآكل الذي ما فتئ أن اختفى سريعا من سماء كبريت، تلك النجوم التي عوَّلت عليها آمالاً عظيمة حسبما علمني العريف محمد !.

عندما ذهبت مع مندوب وحدة المدفعية، كنت أحمل ذلك الجوال الكتان – المخلة – وداخلها كامـل عهـدة القـوات المسلحة لي، شُلت أكتافي ورقبتي مـن حملهـا... هـالني أن وجدت نفسي معه في هول أمواج أجساد بشـرية كلهـا ترتدي الميري، كلها سوف تسافر إلـى وحـداتها المبعثـرة على طريق مصر – السويس، ثم التي علـى ضـفة القنـاة الغربية مثل حالنا، قضينا الوقت كلـه قفـزا مـن سـيارة إلى أخرى وحسب التساهيل... حتى وصلنا ليلاً... أخيـرا. لحظتها ابتسم العريف وقال لي وهـو يحـدق فـي شـيء ما في السماوات البعيدة التي لم أتبينها من شـدَّة الإجهـاد، يومها نظر مليا وقـال: "تأمـل يـا طـارق هـذه النجـوم

المتجاورات... تلك اللاتي تشكل شكل الكسرولة، هذه النجوم أنقذتني في عام ٦٧، كانت دليلي".

سألته:"كيف ؟!".

"سوف أعلمك كيف تسترشد بالنجوم لـيلاً". ثـم تـابع شاردا:

"من يدري ربما نحتاجها إذا ما اندفعت الحرب ثانيـة". ها هي الليلة الأولي لنا في كبريت، لها صوت ورائحة ولون ومذاق... خاص، ومعنا النجوم، ليس هـو ليـل الصـحراء المفتوحة ولا الوحدات العسكرية كما ألفتها من قبل. أصوات المفرقعات وإن كان منقطعا، نباح كلاب وهو مـا أدهشـني كثيرا وجعلني أبتسم أحيانًا !!.

أما الصوت البشري فلم ينقطع... الصياح، بين الحـين والحين يتبادله أفراد الخدمة أثناء الحراسة كأنه يخبر زملائه أنه مازال قائما يتنفس، سمعتهم يستدعون بعضـهم الـبعض بالاسم، ويطلبون السجائر؛ ولأنها فـي العـرف العسـكري من الممنوعات أثناء الخدمـة فكـانوا يشـعلونها ويخفـون رءوسها المضيئة بين راحة أياديهم مع فرجة صـغيرة بـين أطراف الأصـابع وكلـوة الكـف... وغيـر ذلـك كثيـر

من الأصوات التي بلا معنى كافتعـال السـعال والـتمخط والزئير.

أحيانًا كثيرة يردد بعض الجنود "يا لطيف" تلطفًا باسمه، "يا كريم" تيمنًا بكرمه... وفي كل مرة يلصـقون نـداءهم... "يا ا ".

أما الرائحة التي غلبـت كـل الـروائح فهـي مـزيج لا يوصف من روائح العـرق لجـواربهم، أول مـا أفعلـه مع المصاب أخفف عنه حذاءه، لعل بعضهم لم يخلع حـذاءه طيلة أربعة أيام فائتة... مخلوطة برائحة أنفاسـهم المنطلقـة من أجوافهم الجافة، ثم كانت رائحـة الـدم المتخثـر التـي اكتسبت فيها خبرة خاصة حتى كنت أستطيع إصـدار حكـم عن درجة الإصابة من رائحتها !

كثيرا ما كانت تصدق نبوءتي ! أما وقد انتهيـت حـالاً من حفر حفرتي الأفقية وضعت فيها المشمع، رقدت داخلها، لحظتها شممت رائحة نفاذة طرية، لعلها جعبة كل الـروائح التي شممتها منذ بداية المعارك.

وقد كان لليلة الأولى لي في كبريت لون خاص، لم يكن أسود بالكلية ولا رماديا بأثر الـدخان ولا مصـفرا بصـفار

حبيبات الرمال الناعمة التي تتصاعد من جرجـرة الجنـود لأقدامهم عنوة من شدة الإجهاد.

عندما انتهيت من آخر المصابين وخرجـت فـي ليـل كبريت، شعرت بالجوع:"يا جماعة أنا جائع... مازلت صائما تقريبا، إفطاري كوب من الشاي حرام عليكم" سمعني ربيـع باهتمام، انشغل قليلاً، عاد بوجبة لم أكن أظن أنني سأتناولها.

ها هنا. قدَم لي البسـكويت المغـروس فـي اللـبن... "فتة لبن". لم أسأل ما هي الحكاية، أكلت حتى امتلأت فكـان لها مذاق خاص... لم أكن تذوقته من قبل، وكان نفسه مذاق ليلتي الأولى على أرض كبريت.

أثناء التهامي الوجبة الشـهية اسـتلم "جـابر" بعـض الأوراق، أشار إليَ أن أقترب، علمت أنها نشـرة التوجيـه المعنوي اليومية التي توزَع على الوحدات يوميا، بـدأ يقـرأ ونتابع صامتين.

..."موقــف المعــارك فــي الثلاثــاء الموافــق ٩ أكتوبر:، "الجبهة الجنوبية – مصر –".

بعد أن أتمت قواتنا الاستيلاء على الشاطئ الشرقي لقناة السويس بالكامل... تقدَمت تشكيلات على طول خط المواجهة

اليوم إلى مسافة ١٥ كيلو مترا داخل سـيناء... خسـائرهم في اليوم الرابع استسلم الإسـرائيليون بالمئـات بأسـلحتهم ومعداتهم ودمرت قواتنا اللواء ١٩٠ مدرع إسرائيلي قائـده العقيد "عساف يـاجوري"... دمـرت قواتنـا ١٠٢ دبابـة إسرائيلية، وأغرقت ٥ لنشات بحرية، وأسقطت ٤ طـائرات هليكوبتر... أسقطنا ١٦ طائرة فانتوم وسكاي هوك، وأسرنا ٤ طيارين، دمرت جميع مواقع العدو الحصينة.

"الجبهة الشمالية سوريا".

حاولت طائرات العدو الاقتراب من هضـبة الجـولان، واشتبكت معها المقاتلات السورية، أسقطت إحدى الطـائرات في تل الشيجة، وفرّت الطائرات الأخـرى... وفـي غـارة مماثلة تم إسقاط طائرتين للعدو، وثم قامت ٦ طائرات فانتوم بمحاولة الإغارة على الأغراض المدنية في دمشق، تصـدَت لها وسائل الدفاع الجوي وأسقطت أربع طـائرات؛ وهكـذا تابعنا ما يحدث على كلا الجبهتين من خلال تلـك النشـرة المنتظمة، بعد قراءة النشرة في الرابع عشـر مـن أكتـوبر تناقشنا كثيرا...، اختلفنا كثيرا، لكننـا اتفقنـا فـي النهايـة أن الفرحة مازالت معلقة بشيء ما !!.

ذكر النحل يموت في أنثاه

لم تصلنا نشرة التوجيه المعنوي ليلة الخـامس عشـر من أكتوبر، حتى عربات إسعاف الجيش الثالث الذي احتـل حوالي أربعين كيلو مترا جنوب كبريت، لم تعد تصلنا أيضا. اقترح العقيد نقل الحالات الحرجة إلى أقرب وحدات الجيش الثالث مهما كانت النتائج ومشقة تنفيذ ذلك.

بات السؤال... وكيف يتم ذلك ؟!!.

الاتصال لم ينقطع بين العقيد واللواء بدوي قائد الجيش، بعدها أمر القائد بحفر حفرة برميلية لكل فرد تحت إشـرافه شخصيا، وبدأنا التنفيذ... خبرت سر اهتمام القـادة بـالحفر البرميليـة؛ فقـد كـان أول تكليفـات المسـاعد "صـابر" لي – مساعد كتيبة المدفعية -، ففي صـباح اليـوم التـالي لوصولي وحدة المدفعية دخل علينا الرجل لاهثًـا، وكانـت تكليفاته:"عليك بالسير بالخطوة السريعة، واستهلاك أقل القليل من المياه، ثم الآن معي لتحفر لنفسك حفرة برميلية...

"كل فرد في الكتيبة حفر لنفسه حفرة بعمق يكفي طـول قامته"..."حفرة ملاكي يا حضرة الصول"!!

"هنا الحفرة البرميلية تعني الحياة، يجب أن تعلم أن الاستفادة من خصائص البيئة لم نكن نعرفها قبل وأثناء حرب ٦٧، ثم أدار وجهه، قال وهو يهمُ بالخروج:

"ربما اليوم، الآن... تعلم قيمتها يا وحش". سلمني الباطة وأمرني أن آخذ معي كنتين الطعام. لمح علامات الدهشة قال:

"هنا كله ينفع لكله، اتبعني بالخطوة السريعة، عاودت العمل نفسه في السادس عشر من أكتوبر – كما شاركت في عمليات تحديد حدود الوحدة وشد الأسلاك الشائكة، كان العمل شاقًا حتى أن بعض الجنود المرهقة سقطوا فوق الأسلاك فتوخزت أطرافهم، لم نكف العمل حتى تم شدُ الأسلاك بعمق كيلو مترين داخل سيناء... بعدها اجتمع العقيد بقادة السرايا وقد طلب منهم تقرير نهائي وعاجل عن موقف التسليح والتعيين والقوة – عدد الأفراد – بعد خصم عدد الشهداء والمصابين.

عمل قلمه الأحمر في الأوراق... بعدها قال العقيد: "الظاهر الصيام إجباري يا جماعة اعتبارا من الغد". رمى نظرة محايدة يطوي بها السحنات المترقبة القلقة،

تابع:"نحن الآن في موقف جديد، يجب أن نتدارسه جيدا. لم نصل بعد إلى حد الموقف الصعب. هناك احتمالات عديدة للمرحلة القادمة ألخصها في عدة نقاط هي:

أولاً: تمكنت بعض وحدات من قوات العدو من اختراق المنطقة الواقعة بين الجيش الثاني والثالث، ووصلت الآن الدفرسوار وسرابيوم على الضفة الغربية...

ثانيا: إذا نجحوا في العبور وحاولوا التقدُم سينالهم الهلاك ويغرقون في الكثافة السكانية بالدلتا، لو فكروا في الدخول إليها.

ثالثًا: في حالة نجاحهم في تطويق الجيش الثالث، وهو أمر مرجح خاصة أن المنطقة للجيش الثالث في الضفة الغربية تكاد تكون خالية من السكان ولا توجد بها قوات قتالية. لا يوجد سوى بقايا القوات أو مؤخرات الوحدات التي عبرت.

رابعا: أنا متفائل بالرغم من هذا الموقف الجديد... أثق في قواتنا الخاصة التي بدأت تتعامل معهم بالفعل... إن ما حدث سوف يكون مصيدة فئران كبيرة.

خامسا: تفيد التقارير المرفوعة إلـيَ أن موقفنـا الآن، القوة ٢٠٠ مائتان جندي وضابط... وأن التعيين لا يكفي لمدة طويلة، ولابد للبحث عن بدائل. إننا نعيش فوق أرضنا يجب أن نبحث فيها عن أكلنا.

سادسا: هدفنا الآن وصاعدا... الحفاظ علـى الأرض، أرض كبريت أمانة في أعناقنا. نعـيش عليهـا أو نمـوت من أجلها وندفن فيها -"النصـر أو الشـهادة يـا رجـال"- ثم سحب ورقة بيضاء، بدأ يخط فوقها بعض الكلمات وقرأها بصوت عالٍ من بعد:

"أقسم با العظيم أن أظل محتفظًا بـالأرض مخلصـا لمصر... مضحيا في سبيلها بكل غالٍ، زاهـدا مـن أجلهـا في كل نفيس وا على ما أقول شهيد"... أفهمنا أن هذا هـو قسم الوحدة، ومن يقرؤه يعطـي الورقـة لزميلـة ليقرأهـا بدوره... هكذا حتى يقرأها كل أفراد الكتيبة.

عدت ومعي الورقة - القسم - أعطيتها إلـى رفقـاء الليلة الأولى في هذه الوحـدة؛ قرءوهـا بـدورهم، توجـه بها جابر لإعطائها إلى آخرين، عاد سريعا. استقبله صـيام ضاحكًا وهو يقول لي:

"تصوَر يا طارق أن جابر مجهز نفسه على الزواج بعد الحرب كان من المفروض أن يتم ذاك خلال شهور قليلة ؟".

لم أجد في الخبر ما يستدعي كل هذا الضحك منهم والـتجهم منه دهشًا سألتهم:

"ما المشكلة في ذلك يا جماعة... نصيبه ؟

أخيرا بدأ أحدهم بدأ يتكلم وقد احتقنت أذناه بشدَة:

"طلبنا منه كثيرا من قبل أن يؤجل زواجه حتى إجـراء العملية... قلنا عيب وحرام أيضا".

"أية عملية"... ؟؟

تابع وهو أشدُ تحفزا:"يصرُ أن الإجازة الميدانية قصيرة ولا يستطيع تنفيذها في مستشفى".

وجدتني أسـايره دون أن أعـرف التفاصـيل مـا دام في الأمر مستشفى، إذن فهي الصحة قلت:

"بعد الصحة لا شيء... لو كان محتاج لعملية جراحيـة كان عليه دخول أية مستشفى عسكري"....

قاطعني أحدهم:

"خجل يعرض نفسه على طبيب أو مستشفى عسكري".
"لا أفهم، فهموني يا جماعة"!" الحكاية باختصار أن جابر قرر الـزواج وتقـدَم فعـلاً لإحـدى قريباتـه وهـو غيـر مقطوع"..."مقطوع ماذا ؟!"."لم تطهره أمـه يـا سـيدي... فهمت !"... وجدتني أسقط إلى الأرض من الضحك... مشفقًا على"جابر"الذي باتت عيناه محدقتين... وحسب.

دهشت أن انفرجت أساريره، وبدأ يبتسم عندما أخـذوا مني وعدا بإجراء العملية داخل الوحدة في الوقت المناسـب، إذا هدأت الأحوال. شاركتهم من بعد في مزاح الليالي الطويلة حينما يجعلونه موضوع "سهراية" الليلة، حتـى بـت أبتسـم وأخفي بسمتي بصعوبة كلما نظرت إليـه إذا مـا تحادثنـا في أمر ما.

انتبهنا مذعورين على تجدُّد الضرب المدفعي العشوائي، رفعت رأسي من فوق الخوذة وقد جعلتهـا وسـادة، أطـل إلى من حولي، أتأكد أنها الحقيقة ولـيس كابوسـا، لمحـت شقشقات الفجر الجديدة، ارتعشت مع تلـك النسـمة البـاردة الرطبة. سمعتهم يقولون إنها قنابل زنة ألف رطل تلك التـي تسقط فتصنع نافورة من المياه، أرى الميـاه تعلـو عاليـة

مختلطة بالرمال التي لا تهمد، تحملها الريح الخريفية إلى أنوفنا وعيوننا، المدهش أن كل تلك القنابل لم تسقط داخل حدود الوحدة، حتى وجدنا في متابعتها لهفة ومتعة خاصة كأنها لا تهمنا نحن... من بعد تشابهت الساعات والأيام، لم أنشغل إلا بمريضين..."صيام" الذي يشكو من آلام المغص الكلاوي و"عيسى" الذي يعاني من الأم روماتيزمية.

طلبت من كليهما العدو في المحل، وارتداء الملابس الثقيلة، اختصصت صيام بزجاجة جلوكوز يشربها لتعوض فاقد المياه منه، بمرور الوقت وجدت من هو أكثر اهتماما مني بهما..."حميدة" ذلك الأسمر القادم من مرسى مطروح قدم ذات صباح وفي يده بعض الأعشاب، قدم ما في كفه اليمنى لصيام والأخرى لعيسى قائلاً:

"لا مؤاخذة يا دكتور". لم أفهم، همس إلى أذني واختفى. عرفت أنه اقتطف تلك الأعشاب خلال الفترة السابقة لعلاج حالات المغص الكلاوي والروماتيزم. طلب منهما شرب المياه التي تُغْلَى فيها تلك الأعشاب. لم أعترض وإن راودتني مخاوف أن تكون تلك الأعشاب سامة، لم أستطع إخفاء ذلك، قالا لي ردا على مخاوفي:

"كله على ا ، موتة لا أكثر".

بمضي الوقت وقبل سريان قرار وقف إطـلاق النـار اعتبارا من فجر الثالث والعشرين من أكتوبر كثفـت قـوات العدو قذفها العشوائي وعملياتها العسكرية علينا. كان الضابط أسامة القرشي بجواري لحظة بدء الضرب الشديد المكثـف تساءلت حائرا. "لعله هجوم مباشر أخير بغـرض احـتلال كبريت ثانية"!!

حكَ أنفه وهي عادته المعروفة عنه إذا ما فكر في أمـر ما، قال:"لعلهم يريدون الحصول على أكبر قدر مـن الأرض التي خسروها في المنطقة، أكيد... ولو نجحوا فـي احـتلال الموقع كله فلا بأس، فهو أقصى أمانيهم الآن.

قاطعته، قلت:

"إنهم يضربون بطريقة مجنونة... هل ترى ؟!".

شاركنا الضابط سامي بصوته الجهوري المميز، قال:

"يبدو أنهم قرروا إبادة الحياة على سطح تلـك الرقعـة من الأرض !". بصعوبة وصلت إلى الحصن حتـى أتمكـن من ممارسة عملي مع الجنـود المتوقـع إصـابتهم حتمـا. بصعوبة أكبر وصل ثلاثة جنود فقط... دهشـنا لانفعـالات

العقيد إبراهيم وهو المعروف بيننا بهدوء الطبع: "إنه الجنون، القتل، وسفك الدماء". أما عندما تأكد بأن عدد المصابين ثلاثة فقـ ـط. عـ ـادت البسـ ـمة إليـ ـه وإن بـ ـدا وكأنـ ـه لم يصدق ثم قال:

"لا حيلة لنا إلا أن ننقل المصابين إلـى أقـرب وحـدة من وحدات الجيش الثالث، متـي سـتنتهي مـن إسـعافاتك يا طارق"؟، "بعد نصف ساعة يا فندم".

"إذن جهز نفسك يا أسامة لتنفيذ تلك المهمة" .. بعد فترة صمت رفع رأسه ناحيتنا قائلاً:

"الفترة القادمة فترة شاقة... أكيد، لزومـا مـن يبقـى أن يكون صحيحا قويا".

تولى أسامة ومجموعته مهمة نقل الجرحى إلى أقـرب وحدة، كانت تبعد ثلاثة كيلو مترات... بـدا الهـواء سـاكنًا وكأنه كف عن إحداث أصواته المعتادة في مثل تلك السـاعة من الليل، وفي تلك البقعة من الأرض الفسيحة.

خطتهم حمل المحفـات الـثلاث وفوقهـا المصـابون في الوضع نائما، يزحفـون والوضـع منثنيـا، يعـدون... لا يهمسون، يكادون لا يتنفسون أملاً في تحقيق هـدفهم دون

أن يلحظهم أحد في برج المراقبة الذي شيده العدو منذ فتـرة قليلة حول موقع الكتيبة. أحد الجرحى قفز من فوق محفتـه مصرا على الزحف معهم؛ إشفاقًا على زملائـه وإصـرارا على متابعة المعركة التي أصيب فيها، في البداية رمقه أسامة وسبه كي يعتلي المحفة ثانية... ولا وقـت للمناقشـة، نفـذ الجندي على مضض.

قبل أن يتابعوا ثانية، تأمل أسامة من خلال ظلمة الليـل بعينيه اللامعتين كعيني النمر، تأمل مركز المراقبة الخشـبي الذي وضعه الأعداء خلال الأيام الأخيرة، قال:

"سوف يأتي دورك"... تابع رجاله حتى كانت مفاجـأة جديدة، فاق أحد المصابين الذي كان مخدَرا وصامتًا طـوال الفترة السابقة، وما إن تلاشـى أثـر المخـدر قلـيلاً وهـم لا يحملون مخدرا معهم، المصاب يلوك بكلمات غير مفهومة إلا أن نبرتها العالية قد تفضحهم وتكشف أمرهم ليتعرضـوا فورا لرشق الرشاشات القريبة جدا منهم.

إذا بأسامة وقد أطلقوا عليـه لقـب "الـذئب" يضـربه على مؤخرة رأسه فصمت المصاب ثانية، تـابعوا زحفهـم. لم يكن قد مضى من الوقت الكثير بعدما عدت إلى الرفـاق

أجالسهم صامتًا، كل منا يرتمي إلـى مسـاحة مـن الأرض تعادل طول قامته انشغل أندريا في نفسه، يعيد تهذيب شعره وهندامه كعادته بعد كل فترة يتفرغ لرفع حبيبـات الرمـال من ثنايا جسده وشعر رأسه معبرا عن اعتراضه، كل مـرَّة يقولها:

"شوك" أشعر بها إبر في قفاي وعيني لـن أتركهـا !".

اضطررنا أخيرا إلى القبض عليه... وإجلاسه عنـوة بعـد أن أهاج الأتربة والرمال علينا وعلى عيوننا بتلك الـدفعات المتتالية لكل قطعة من ملابسه الداخلية. حاصرناه في ركـن بعيد عنا ليمارس هوايته في أضيق الحدود. دخـل العريـف عوض، ألقى السلام، جلس على ركبتيه بحيث كان واضـحا لنا ونحن في رقدتنا... قال، قالها بعد فترة صمت قصيرة:

"يا جماعة... علمنا باستشهاد زميلـين الآن"... سـألناه عمن يكونان. نهضت مفزوعا:

"متأكد، أم أحاول معهما".

لم يرد على أي سؤال ولم يزد من انفعاله إجهادا وإشفاقًا علينا إلا أنه كررها بإصرار:

"الشهداء لزوما يتم دفنهم الآن"، وكأنه لا يريد أن يترك فرصة لتفسير آخر أو لقرار غير الذي جاء من أجله... بعد فترة صمت تشجع صيام:"ندفنهم... حـرام... مـن يعلـم"؟ تابع أندريا وقد نهض فعلاً:

"ربما يأتي دورنا بعدهما... أنا وقفت !". لحقـه جـابر صامتًا، عندما تقدَم قال بصوت خفيض:"توكلت علـى ا "... قلت وأنا أثقل الخطو عمدا:"سوف أذهب معكم لكن اعفـوني من تلك المهمة... هذا الموضوع ثقيل على نفسي، لن أقـدر عليه"... لم أسمع ردا، سرت خلفهم وأنا أتابع مقدمة حـذائي الجرباء، بدءوا العمل بلا طقـوس ولا تراتيـل ولا عويـل ولا مقبرة، خلال دقائق قليلة اختاروا إحدى الحفـر الكثيـرة في الوحدة، لفوا كل شهيد في بطانية، كوروهما حتى اختفت وجوههما اللامعة وسط الظلمة... توقف جابر عـن إهالـة الرمال فجأة... وكأنه تذكر أمرا:"نقرأ الفاتحة يـا جماعـة". قرأت معهم وأنا بعيد عنهم... قبل عودتنا شـعرت برجفـة وبخيوط، من العرق البارد جبهتي وأنفي أحكمت الزنط أكثر لعله يحميني من تلك الرعشة المفاجئـة. فشـل فـي ذلـك كما فشلت في متابعة مشهد إهالة الرمال فـوق الشـهيدين،

ذهبت إلى العقيد أخبرته... سـلمته اللـوحتين المعـدنيتين المحفور عليها الرتبة، الرقم، الاسم لكل منهما. شاركت فـي اجتماع القائد مع السرايا وحضرت مناقشاتهم معا. قال الرائد سعد ردا على سؤال العقيد:"بعـد حصـر المعلبـات التـي لم تحترق وجراكن المياه، يصبح رصيد كل فرد في الوحـدة كالآتي... نصف علبة فول مدمس عبوة ١٢٥ جـم، وربـع باكو بسكويت، وثمن لتر ماء يومي يا فندم"...

علق العقيد شاردا:"يجب أن نجهز أنفسـنا علـى ذلـك ولفترة يعلمها ا ... أظن من الحكمة الآن محاولة الاتصـال بقيادة الجيش الثالث لمناقشة هذا الموضوع... الأهـم يجـب أن نعتمد على أنفسنا... لكن كيف ؟؟ هذا هو السؤال الواجب على كل منا التفكير للإجابة عليه". انتظر الجنـدي محمـود خريج كلية العلوم حتى انتهى القائد من كلامه ثم قال:

"عندي فكرة غريبة"... نظر إليه العقيد صامتًا إلا أنـه كان منتبها له:

"ماذا لو قطرنا مياه القناة المالحة". ابتسم الرائد سـعد، قال:

"بل فكرة مجنونة يا محمود وليست غريبة" العقيد مازال يتابع باهتمام:"وضح فكرتك يا محمود كي نفهم ونساعدك". "سوف أقوم بتصميم الجهاز المطلوب... الفكرة النظرية أعرفها تعتمد على فكرة تكثيف بخار المياه بعد الغليان". أومأ العقيد برأسه ثم قال:

"اجلس معه وسهل له مهمته لتوفير كل المطلوب من أفراد، وأدوات وخلافه".

عندما عادت مجموعة "الذئب" مع نسمات الفجر الجديد وقد أنجزت مهمتها بنجاح، كانت المفاجأة أن عاد أسامة القرشي محملاً بالخير... دخل إلى العقيد ومعه صندوقان من المعلبات وجركن مياه عذبة، في الخارج استقبله الجنود مهللين وبفرحة عارمة وقد عرفوا تفاصيل ما حدث وما فعله الذئب ومجموعته وهم في طريق عودتهم... حيث ترك الذئب أفراد المجموعة، اتجه إلى برج المراقبة الإسرائيلي القريب، انتظرهم حتى بزوغ الشمس لليوم الجديد. كان في استقبال جنود البرج، أفرغ مدفعه الرشاش فيهم... واغتنم ما معهم من طعام ومياه !! داخل الحصن استقبله العقيد بكل

الشوق والترحاب معانقًا، استمع إلـى تفاصـيل مـا حـدث باهتمام، ابتسم موجها حديثه إلى الرائد سعد:

"ضم الغنائم إلى رصيد التعيين"... ثـم تفـرَّغ العقيـد إلى ورقة بيضاء بين يديه يخـط فيهـا إشـارات وأسـهما وتقسيمات، لقد قرَّر إعادة الوحدة على أساس الوضع الجديد والاحتياجات الجديدة.

قرَّر تقسيم الأفراد إلى مجموعات، مجموعـة تقطيـر المياه وقد دعم محمود بخمسة أفراد لتنفيذ فكرته... مجموعة الهجوم المتقدم بقيادته شخصيا للعمل فـي صـد أي هجـوم مضاد متوقع... مجموعة التموين؛ ونظرا لتجربـة الـذئب أسامة قرَّر أن يكون قائدها، وقد شاعت بين أفـراد الوحـدة من بعد، وتكرَّر اختراق الذئب لخطوط الحصار حتـى أنـه وصل إلى أقرب وحدة بالجيش الثالث لأكثر من المرة وتعوَّد الجنود كلما قابلوه أن يسألوه:

"ما الأخبار ؟ ماذا سنأكل اليوم ؟!". ثم كانت مجموعـة الحراسات ومجموعة الخدمات، وأخيرا مجموعة الاتصـال والمجموعة الطبية والشئون الإدارية، أما مجموعـة ربيـع وصيام فقد كانت عندها فكرة أخـرى؛ إمكانيـة الاسـتفادة

من المعلبات المحترقة، ظلا يبعثران فـي تلـك المعلبـات وقد غلبت رائحة الذرة المشوي كل الروائح وكل المعلبات.

تخيرا علبتين:

"أنا علبتي كانت أرزا باللحم".

"لا توجد معلبات أرز باللحم، كلها فاصوليا باللحم".

تدخل أندريا بجدّية:

"أرني علبتك يا ربيع"... تذوّق ما عنده"... بعدها أبدى علامات الحيرة ثم قال:

"لم أتأكد يجب أن أعيد المحاولة"

انتبه ربيع للعبة... رفض !

ضحكوا جميعا عندما تأكدوا أن المحتويـات المحترقـة خلصت ولم يستطيعوا معرفة هويتها....

خرجوا إلى الرفاق، قصوا ما حدث معهـم وأخبـروهم عن الكنز.. مخزن المعلبات المحترقة.

عندما وصلوا إلى حيث مجموعـة محمـود انشـغلوا معهم... شاركوهم، قال محمود:

"مشكلتي الحقيقة هي الكبريت يا جماعـة... أرجـوكم اسحبوا كل الكبريت من أي فرد بالوحدة".

عاد وانشغل ثانية في تصميم جهازه وقـد جمـع كـل ما يصلح لإنشائه، من صفائح، وأوعية معدنية، ومواسـير، كل ما يصلح أن يكون وقودا. كانت أشق المهام من بعد، هي مهمة نقل المياه من شاطئ القناة حتى موقع الجهـاز. إنهـم في حاجة إلى كميات كبيرة قدر منها أعلى النيـران، وقـدر منها يلقى فوق المواسير (مواسير التكثيف) انقضى نصـف النهار عندما أتمَ محمود تركيب جهـازه وتشـغيله لخمـس ساعات، تُغْلَى المياه ويلقي على المواسير المياه البـاردة... لثلاثمائة دقيقة يتابع محمود نتائج فكرته وبشائر فرحته.

وكانت لحظة مجنونة، فيها ظهر بريق... بريق عكـس شموس الدنيا. اتسع البريق حتى كانت نقطة مياه لينة مجنونة هي الأخرى تسقط في زجاج الجلوكوز الفارغة.

اقترب محمود منها، اقترب أكثر من فوهـة الماسـورة إلى الوليد الجديد، إلى النقطة التالية. نجحت الفكرة إذن !! !

اضطرب، لا يدري ماذا يقول، وماذا يفعـل ؟!، كـل ما حرص عليه ألا يقترب أكثر من النقطة الجديدة فتتلاشـى

عند أطراف أصـابعه، أخيـرا تجـرأ ونطقهـا:"مبـروك يا جماعة".

ظنَ أنه يحادث نفسه؛ إذا بأفراد المجموعـة تصـرخ، أحدهم يقفز لأعلى ويهبط مقرفصا على الأرض، آخر يغني:

"قولوا لأبوها إن كان جعان يتعشـى". ثالـث ضـحك، ضحك ضحكات هستيرية. علم القائد بالخبر، تقـدّم مبتسـما ليرى رؤية العين، استقبله محمود فرحا...

"نجحنا، نجحنا يا سيادة العقيد"..."ربنا معنـا، اسـتمر، الحمد ا ، أعطني التمام عند الغروب، وبالمناسبة تطفأ النار قبل الغروب، مفهوم"..."تمام يا فندم".

ما إن لمحه محمود التقط تلك الغلالة التي كست عينـي قائده، لم يجد بدا أن يبكي؛ فبكى بصوت مـرتعش وجسـد مرتعش وبفرحة حقيقية.

انزوى العقيد بعيدا عن الجميع، رغب أن يشعل سيجارة وأن يجالس رأسه، سرعان ما تذكر وقت آخر إجـازة لـه، حين استقبله طفلاه، عاتباه لتأخره عن ميعاد إجازته. تعمـد ألا ينظر إلى عيني زوجته المعاتبة، افتعل انشـغاله بعنـاق

طفليه وقد قبلا اعتذاره، أما الزوجة التي تحاول إخفاء بسمة وترسم غضبة قالت: "ولو"...

ثم اندفعت إلى المطبخ لتجهيز الطعام الساخن والحمام، عندما انفردا معا في غرفة نومهما ضحك قائلاً:

"أما زلت غاضبة"..."قلقة، لست غاضبة... فقط"..."إذن لتعرفي أنني سوف أعود إلى الوحدة في الصـباح البـاكر". لم تجد ما تعلق به ولم يزد هو أكثر. عندما انتبه على صوت عالٍ يلهث نحوه، كان جندي المراقبة يخبره أن العدو يجهـز لهجوم مباشر.

"إذن سوف أتقدَم مع مجموعتي... يجب أن نبدأ نحـن بالهجوم والتقدُم نحـوهم، وبكـل الأسـلحة وأكبـر كميـة من النيران... نريدهم أن يعتقدوا أن لـدينا رصـيدا كبيـرا من الذخيرة والقدرة القتالية".

بدأ الضرب العشوائي الغامض يمسـح أرض الكتيبـة. العقيد مع مجموعة تبادل التراشق مع العدو لساعتين. بعدها نجحوا في إيقاف تقدُمهم، وفي تعديل فكرة اقتحـام الموقـع. عندما عادت مجموعـة الهجـوم كـان العقيـد محمـولاً، "إبراهيم عبد التواب" مخضبا صامتًا... لا يتكلم ولا يتألم...

اندفعت نحوه، وضـعت البطانيـة الصـوفية فوقـه، ثم بطانيتين حاولت تركيب جهاز نقـل المحاليـل، فشـلت في العثور على وريد واضح في ساعدي الرجـل، حاولـت في وريدي الرقبة، أخيرا تمَ. إلا أن الرجل نظر إليَ بالنظرة الهادئة المعتادة قال:

"لقد انتهى كل شيء، لا تحاول ربنـا معكـم – أشـهد أن لا إله إلا ا وأن محمدا رسول..."

"أنتم السابقون ونحن اللاحقون".

" الذئب يعرف الوفاء أيضا "

ثانية قرأ أفراد الوحدة القسم، وزعت قصاصة الـورق الصغيرة بعد أن قرأهـا الرائـد سـعد"القائـد الجديـد"... " أقسم با العظيم أن أظل محتفظًا بالأرض مخلصا لمصـر مضحيا في سبيلها بكل غالٍ... زاهدا من أجلها بكل نفـيس وا على ما أقول شهيد".

كان لقراءة القسم هذه المرة مـذاق ومعنـى آخـر... البعض قرأها كأنها لأول مرة، آخرون يشـعرون وكـأنهم يقرءون أحداثًا مضت وقادمة لا محالة، بعضهم قرأها بعينيه في المرة السابقة هذه المرة قرءوها أكثر من المرة وبصوت عالٍ كأنهم يلصقونها في جوف رءوسهم. هذه المـرة كـان للكلمات معنى آخر. بات الصراع مباشرا بين الجنود والزمن الغامض... من جديد بدأ الرائد سعد في دراسـة الموقـف، شعرنا وكأن خروج النفس ودخوله مهمة تثقل كاهلنا.

تأكد القائد الجديد من أن المياه غير المالحة التي ينتجها الجندي محمود زجاجتين جلوكوز في اليوم... فقط، ومع ذلك فشلنا في العثور على مكونات جديدة تصلح لصـنع جهـاز

جديد، بعدما تحطم الجهاز القديم، نتيجة القـذف المباشـر... عجزنا في الحصول على بعض المواسير والصفائح. ساءت أحوال التعيين اللازم لنا، الوحيد الذي فلح في إلقـاء شـيء ما داخل جوفه أكثر من رفقائه هو ربيع، لمحته يلقي شـيئًا ما بين شفتيه ويجرشه... أخيرا، أخبرنا بالسـر:..."عـرفتم قيمة اللقيمات التي دفنتها في الرمال". وأخيرا عفـا عنـا... شاركناه وألقى إلينا ببعض اللقيمات!! ترى لماذا تذكرت ذلك القصير الفظ، المحتقن الأذنين انفعـالاً وغلاظـة، المحتـرق البشرة من طول المدَة التي يقضيها ذلك الرقيب "ريان" تحت الشمس في ساحة تدريب مركز الخدمات الطبية، معنا، مـع من قبلنا، ومن سيأتي بعـدنا، حتـى بـات رمـزا للقسـوة والفظاظة، كان يجمعنا تحت الشمس المتعامدة على رءوسـنا ويصيح "صفا" "انتباه" بلا ملل لعشـرات المـرات... دومـا يختمها بقوله:

"والآن حمام شمس لمدة ساعة"... وربما نقضي أكثـر من الساعة بكثير، هذا الرجل له حضور غريب، أتذكره الآن وقد تعلقت أرواحنا بلقيمات عزيزة وبرشفة، كما كان ليل... نهار له وجود، طيلة الخمسة شهور التي قضيتها في المركز

لم يمرض ولم يصادف مشكلة في حياته تجعله يختفي عن أعيننا إن لم يكن بجسده نستحضره... كظاهرة غريبة... من قائل" "إنه سعيد بتعذيب شباب مثل الورد مؤهلات عليا... أطباء"... ومنا من قال "هذا الرجل معقد لقصر قامته ولنحافته، ولولا الثلاث شرائط على عضده لضربناه حتى يعرف قوته الحقيقية"!!.

وسرعان ما يتحوَل الحديث إلى جملة أسئلة بغير إجابة... هل الرجل عزب أم متزوج ؟ هل هو من المنوفية فهم أكثر أهل الأرض عشقًا للحياة العسكرية وللميري ! هل شارك في حرب ٦٧ فعلاً ؟! عندما أمرنا بالاصطفاف على شكل مربع ناقص ضلع... وقف في المنتصف أخبرنا بتمام الفرقة التخصصية، وأنه من حقنا ارتداء ثلاثة شرائط لرتبة "رقيب طبي"... في ختام كلمته وبصوت خفيض حزين قال:"جاء دوركم تشرفونا، نحن في ٦٧ لم تتح لنا الفرصة... صدقوني، أنا في حرب ٦٧ لم أحارب، أنا عملت حانوتيا". صدَقت يا رقيب ريان جاء دورنا !

نجح المقدم حسين في مهمته الانتحارية اليومية في نقل قدر لا بأس به من المعلبات والمياه، ينقلها في زورق بحري

من أحد المواقع البحرية التي تسيطر عليها قـوات الجـيش الثالث إلينا، في رحلة غير مضمونة، كان علينـا أن نـدخر من رصيد اليوم لأيامنا القادمة على قلة مـا يصـلنا، ربمـا يضرب ذلك الزورق في رحلة الغـد أو بعـد الغـد؛ لـذا أسميناها..."الرحلة الانتحارية اليومية"عندما تقسم علبة الفول المدمس على خمسه تصارعنا عليها، اقترحت علـيهم حـلاً ارتضوه، أن نقسم ورقة إلى خمس مربعات متساوية الحجـم ولكل منا ورقة يأكل بها... بذا نضمن عـدم التهـام العلبـة في حفنة واحدة لأحدنا... هكذا أصـبحت بعـد أن عشـت تجربتي الأولي مع طاقم عتـريس الأول فـي أول وجبـة لي معهم عندما التففنا حول القروانة نأكل اليمـك والأرز... انتبه بكر إليَ ابتسم:

"هنا يا وحش لا خجل... وإلا تمـوت جوعـا ولـيس بالرصاص". نعم تذكرتك يا بكر... لا خجـل وإلا المـوت جوعا. كما التقطت أذناي أنغام الناي الحزين بين شفتي "بكر" بعد كل وجبة... يومها قال موجها حديثه إليَ كـي أسـمعه لا لأن أبدي رأيا:

نعيش مثل كل دول العـالم المتقـدم نحـب... نسـمع الموسيقى... نلعب ونقوم بالرحلات... مثل..."ليقاطعه وهدان بصوته المتميز:

"بدأ بكر يحلم يا جماعة، احلم يا بكـر... احلـم حتـى تموت وأنت مفتوح العينين"!!

لم يمت بكر وهو مفتـوح العينـين، عنـدما صـدرت التعليمات بالتدريب على مدفع جديد.، خلال فتـرة وجيـزة انتهى التدريب على السلاح الجديد... شغلنا سؤال مشترك:

"بماذا نسمي الرفيق الجديد"... انتهينـا إلـى الموافقـة على رأي وهدان:

تخليدا لذكرى عتريس الأول... نسمي المـدفع الجديـد بـ "عتريس الثاني"... بدأت الكتيبة في التحرُك إلى الجبهـة ثانية، إلى موقعنا الأصلي... قائد الكتيبة في السيارة الجيـب بالمقدمة، من خلفه أعداد كبيرة من العربـات التـي تـزف العريس الجديد، وهو تشبيه بكر قبل أن يركب داخل عربـة الشئون الإدارية.

كل ما نخشاه أن ترصدنا أجهزة العدو... وهو ما حدث. فور وصولنا الموقع، استقبلنا بالقذائف، سارعنا بالمشـاركة وبادلناه الرشق وبالمدفع الجديد... يتابعون من حوالي:

"هذه طلقتهم"

"تلك الدانة من عندنا... بدأنا الردَ عليهم".

"هل تلاحظـون، إنهـم يسـتخدمون طريقـة السـلم في الضرب طلقات متتالية على خط أفقي، أخـرى متتاليـة على خط رأسي، ثم أخرى أفقي !".

"إنهم يمسحون المنطقة... سترك يارب".

"أبو جاموس مشارك يا جماعة".

بعد أن هدأ القذف المشترك، اجتمع الرفاق إلا بكـر... وقال وهدان:

"سوف أخرج للبحث عن بكر حتى تجهـز لنـا لقمـة يا أبو غالي"... انقضت فترة قصيرة، دخل علينا أحد الجنود، وقف ولم ينطق لاهثًا... سألناه:"ماذا بك... تكلم"؟!

"بكر... بكر يا جماعة".

سألناه تفصيلاً، لم يرد، خرج ردُّه في صـوت مختنـق لنحيب مكتوم... لا. أكثر. صـدرت الأوامـر بـدفن بكـر مع اثنين من الشهداء بالمؤخرة، حتى يتم نقلهم إلـى مقـابر الشهداء!!

نجح وهدان في إنجاز المهمة الصعبة، تعامل مع جسـد بكر الهامد... لفه ببطانية جديدة. قرأنا الفاتحة. الشيخ حسـن واعظ الوحدة ردد قائلاً:

"ا أكبر... يا جماعة"... ولما لم يسمع ردا... كررها بصوت عالٍ، لم يكف قبل أن سمعنا نردد:

"ا أكبر... ا أعظم وأستغفر ا العظـيم"... عـدنا إلى الملجأ ثانية، كلنا أدار ظهره كي لا يرى مرقد بكـر... ناي بكر المعلق... ما زال...... طلب مني القائـد الجديـد – الرائد سعد – الموقف، أفدته بنقص شـديد فـي بعـض مستلزمات الإسعاف السريع، هزَّ رأسه صامتًا ثم أدار وجهه إلى الذئب صائحا وكأنه أدار فكرة ما في رأسه، قال له:

"ماذا تقول... هل جننت إلى هذا الحد ؟!... ببساطة ردَّ أسامة القرشي:

"تعوَدت على ذلك، من قبل قابلتهم في جزيرة شـدوان، الآن وهنا في كبريت نجحت من قبل"...

"لن تسلم في كل مرة ونحن في حاجة إليـك"..."العمـر واحد يا سيادة القائد"..."ولا تنس أن معنى ذلـك أن العـدو سينتقم بأسلوب أشد شراسة وربما أشرس من كـل أسـاليبه السابقة"..."ماذا فعل في شدوان ؟"ثم ضحك الذئب قائلاً:

"جزيرة شدوان لم تكـن يومـا أكثـر مـن اسـتراحة من استراحات الملك... يقضي فيها ساعات المتعة. بها كهف طبيعي، في أحشائها شيدوا البار في هذا الكهـف... نحتـوه من الصخور ذاتها، الوحدة المصرية التي تحتـل الجزيـرة لم يزد تسليحها عن التسليح الفردي المعتاد... مع ذلك فوجئنا بالقذف المباشر بالمدافع والطائرات لمدَة عشـر سـاعات... بعدها حاولوا إتمام عملية عسكرية بالقوات الخاصة لهـم... تشابكنا بالسلاح الأبيض... وبالمواجهة وجهـا لوجـه بعـد أن نفدت الذخيرة منا، في فجر اليوم الجديد التـالي شـعروا باليأس من محاولتهم التليفزيونية، فالجزيرة لا تحقق نصـرا عسكريا حقيقيا ولكنها تعني بالنسبة لهم خبرا إعلاميا جديـدا يؤكد سيطرتهم على المنطقة".

علق الرائد مبتسما:

"هل تحاول إقناعي"؟!

"بل أؤكد لك إن كتب علينا الموت، أن نموت بشـرف بدلاً من الموت جوعا...".

وقتها صمت القائد بما يعنـي الموافقـة بشـكل مـا، في منتصف الليل تقدَم الذئب نحو العدو، بدأ البرج يتضح له، حفظ الطريق من قبل، فصعد ومعه مدفعه الرشاش إلى أعلى البرج الخالي... رقد بقية ساعات الليل مفتوح العينين يسترق السمع قابضا على ما في مثانته، تعـوَد الحفـاظ علـى مـا في جسده من مياه... !

عندما جلس إلى أرضيه المكان الخشبية تلفـح ببطانيـة تركها أحدهم، عيناه تحلقان وفوهة رشاشه نحو الدرج الأول للسلم، مع شقشقات الفجر انتبه... كان صوت أقـدام تتقـدَم، بدا وكأنه شعر بدفء أجسادهم يقترب، سمع أحدهم يدنـدن، آخر غنى على دندنتـه... بـدءوا يتضـحون جليـا لـه؛ أربعة أفراد أحدهم يحمل صندوقين من المعلبات، آخر يحمل جركنين من المياه، حبس أنفاسه حتى لا ينتبهوا له...

اقتربوا أكثر وأكثر...

يمكنـه الآن أن يضـربهم، إلا أنـه انتظـر أفضـل الأوضاع... أصبحوا في حضنه... مع صرخة عالية ملؤهـا الغل والصبر والحرمان والثأر، مـع صـرخة هـي كفـن أجسادهم ضغط على زناد مدفعه الرشاش. سـقطوا !! لمـح أحدهم ادعى الإصابة... كشف لعبته، عزله من سلاحه، أمره بحمل الصناديق والمياه... استقدمه، سار خلفـه... وحتـى الوحدة المحاصرة... ما فتئ انتشر الخبر، خـرج الرجـال لتحيته..."ا أكبر يا ديب"..."ضمنا أكل اليوم"!!!

"عقبال التالية يا ديب"... داخل مكتب الرائد سـعد تـمَ تسليم الأسير والأغذية والمياه فضحك الرجل وقال:

"الخير على قدوم الواردين"... علق الذئب بخبث ذكي:

"الوارد... أنا أم الإسرائيلي"... ثانية أعاد القائد حساباته بعد إضافة التعيين الذي استقدمه الذئب كما توقع الرائد سعد حدث...

بعد انقضاء نصف النهار الجديد اشتعلت الرمال نـارا بعد الضرب العشوائي المباشـر؛ كانـت الخسـائر إصـابة الجندي"عيسى"، وتلف جهاز الاتصال الوحيد بالوحـدة. الآن عزلت الكتيبة عن العالم تماما... قضيت بقية ساعات النهار

داخل الحصن مع"عيسى"، حاولت معه بكل ما هـو متـاح، الرفاق لم يتركونا وحدنا... كثيرا ما يحضر أحدهم ليعرض رغبته في تقديم أية مساعدة، وعندما يسأل عيسى عن حالـه يردُ مبتسما:

"وفرت لكم وجبة يا وحش"... ونبتسـم معـه... قـرَر الرائد ضرورة القيام بهجوم انتقـامي مضـاد مقابـل ذلـك الهجوم؛ حتى لا يعتقد العدو أننا بدأنا نستسلم !!

"لقد انتهيت من خطة عمل انتحاري مـن سـينفذها ؟". لم يجد مشقة في عدد المساعدين له، وجـدها فـي اختيـار بعضهم دون البعض الآخر... دخل أحد الجنود، قدَم التحيـة العسكرية قال:

"نقطة الملاحظـة والرصـد أفـادت بتلـك الإشـارة "قرأها الرائد سعد، ثم ابتسم:

"الرصيد الإستراتيجي لقوات العدو تم استعاضـته منـذ قليل".

"رزقنا يا أفندم"..."إذن الليلة وا معنا". !

قالها القائد وحدَد مهمة كل فرد ودوره في المهمة... أهم ما سأل عنه قبل تحرُك المجموعة ليلاً:

"معك كبريت يكفي"..."معي يا أفندم"...

مضت نصف الساعة ربما أقل ولكننا شعرنا بها طويلة طويلة، حتى سمعنا صوت رشـاقات. ابتهلنـا إلـى ا ... لم يجلس الرائد سعد إلى الأرض ويضرب بكلتا كفيه الرمال ويتنفس بعمق وبشدَة إلا بعد أن لمح وهجا ونورا أضاء كـل الوجوه من حوله... تم تفجير مستودع وقودهم !.

سرعان ما استتبع بهجوم بالدبابات مـنهم... مجموعـة أسامة تقدَمت لها برفقه الضابط محمود صديقه الحميم، أخيرا نجحوا في إيقاف الهجوم، مضت فترة حتى علمنا باستشـهاد محمود وإصابة الذئب.

انتشر الخبر، تجمع الجنود من حوله وقد بدأت أضـمد عينيه، وحقنته بـالحقن المناسـبة لتلـك الحـالات. أخيـرا اضطررت إلى حقنه بحقنة مهدئة عندما هاج كثيـرا فـور سؤاله عن الضابط محمود وقد علم باستشهاده.

"الطيور لا تأكل عشها"

شعرت أنني بحاجة إلى هزَّة عنيفة، أنا ومـن حـولي وقد مللنا الضحك والبكاء المتشـنج. تعليـق فـجٌّ سـخيف يضحكنا، ينال من هدوئنا المغاف، هـوس نفوسـنا البـادي في صرخات حواراتنا الممتدة، وفي صمت بعضنا الطاغي، نعم في الصمت والصراخ معا ! كليهما. اقتسم أفراد كتيبتنـا المحاصرة لأكثر من المائة يوم حتى بدأنا نعجز عن حصـر عددنا... قد نبكي إذا ما تشـاجرنا فـي وحشـية، سـرعان ما نغضب وبسرعة نهدأ معا !

ذات مساء شغلتني فكرة وسؤال، الكحول الأبيض ينقص من الجراكن الخاصة به، بمعدل مرتفع وأعلى من معـدلات التبخر، وقد ظننت في أول الأمر أنه البخر حتـى ضـبطته يبكي بصوت مخنوق، لعله يرجو إخفاء شيء ولم يقدر؟

الجندي"علواني"أحد أفراد المجموعـة الطبيـة، وثقـت فيه وآمنته على عهدة النقطة ومن ضمنها الكحول الأبـيض فإذا به يمزج قدرا منه مـع إحـدى زجاجـات الجلوكـوز ثم يتركها ليوم وربما لأكثـر، بعـدها يشـربها ويبكـي !

اعترف لي بذلك وهدّدته بمحاكمة عسكرية ميدانية لو عـاد إلى فعلته تلك... فولول وتشنج، وكاد يقبل حذائي ورائحـة الخدر تفوح من كل مسام جلده العطنة الذي ما عاد يعـرف للماء وللاغتسال طريقًا، ليس وحده بل أغلبنا إلا بعضنا يملك القدرة على صب مياه القناة المالحة البـاردة فـوق جسـده ولا يرتعش ويمرض. كانت أغلب الأعراض المرضية التي يشكو منها الجنود هي أعراض التهابات وأمـراض جلديـة فضلاً عن الأعراض العصبية.

ينبثق ضوء النهار فنفرح لشيء من الدفء يدغـدغنا، ينقضي الليل باكرا فنغوص داخل جلودنا، هكذا تمضي بنـا الأيام الثقيلة... أغنية نسمعها ولعلنا سمعناها مئات المـرات من قبل لم ننتبه لها، أما الآن... وحـدها كفيلـة أن تـذرف الدموع من خلف جفوننا وكأن عيوننـا أصـبحت ضـروعا نحلبها فتدمع.

أهكذا أصبحت حواسنا على حد سيف ماذا... فـي يـد أحدنا حبة طماطم طازجة ؟!"

المشهد جعلنا نضحك وكأننا السكارى، لا نجد ما نتفـوه به إلا تعبيرا عن الدهشة قائلين:

"طماطم... طازجة".،"حبة طماطم في كبريت"، "الشهداء نبتوا يا جماعة"

ما إن اقتحمنا الجندي "فكري" حتى هاجـت هواجسـنا، اتهمناه أخيرا بإخفاء كنز في الصـحراء... افتعلـت اتزانًـا في لساني وتفكيري فسألته:

من أين أتيت بها، كيف حصلت عليها ونحن ها هنا ؟!! انتقلت عدوى الضحك إليـه، ظـل يضـحك حتـى سـقط على الأرض، حاول أن يتكلم، عنده ما يقوله، عجز في أول الأمر... انتهى إلى قرار ارتضيناه على أمل فـي مشـاركته بعد قليل في ثمرات جديدة:"بعد أن أنتهي منها... أحكي لكـم حكايتها". بعضنا بـالغ فـي تـدخين الأعشـاب المجففـة، وقد صنعوا منها سجائر أو ما يشبه اللفائف التي تخرج أسود قيء الرائحة والمذاق... فكانت الضحكات المخلوطة بالسعال الجاف الخشن حتى يتقيأ إفرازات معدته... مشـهد متكـرر لا يشغلنا ولا يقلق صاحبه... انتهى فكري وقصّ الحكاية:

"تعوَدت أن أتبرز في إحدى الحفرات البعيـدة مـثلكم، وفيها أيضا تعوَدت التبول، وعليها سقطت الأمطـار التـي هطلت خلال يناير الفائت فكانت الثمرة ؟". لـم نفهـم فـإذا

به يزيد دهشتنا ويؤكد:"وجدتها تنمو داخل إحدى زجاجـات الجلوكوز الفارغة والتي كنت أتشطف ببعض الميـاه التـي أحملها فيها ثم أتركها... هناك أيضا فـي الحفـرة ؟"ولأننـا لم نصدقه نهض، أمرنا أن نتبعه إلى حيث حفرتـه الكنـز، رأيت وأنا أدير الفكرة في رأسي راجيا حبة جديدة تنمو داخل زجاجة أخرى... سألوني تفسيرا لم يكن مـن الهـين علـيَّ أن أعثر على تفسير يرضيني ويرضيهم حتى وجدتها:

"يا جماعة التفسير الوحيد أن بذور الطماطم لا تهضـم في الأمعاء، وجدت بيئة مناسبة في الحفرة فنمـت والتـوت من خلال عنق الزجاجة لتتـابع نموهـا" ولنعـود جميعـا إلى ضحكاتنا الهستيرية.

كنا نبكي وأقوانا اتزانًا من يـدمع بـلا صـوت حتـى لا يزعج غيره، كلما سمعنا "غريب" وهو يدندن موَالاً بذاتـه وأغنية بذاتها من أغاني "ولاد الأرض". كلما كـان الوقـت مناسبا من ليل أو نهار يسمعنا غريب الموال... يقول ويكرر وحفظته عنه:

"تعالي يا طبيب المبالي عند بيتنا دلي... واكشف علـى الجرح اللي لو زمان دلي.

وإذا كان دوايا على المخلوق يا ذلي... وإذا كان دوايـا عند ا   ارفع ايدك يا طبيب.

وخلي المقابر... المقادير تاخد حدها مني.....

السبع سبع... ولو قلت مخالبه.

والكلب كلب ولو طوقتو بالذهب

لو يعلم الخمر بأن الندل يشربه.

ليحلف الكريم ما عاد يطرح العنب.

من عاناك عانيه... واجعل عيالك عبيده.

ومن ضاداك ضاديه روحك ما هش في ايده.

ونبكي أكثر إذا ما غنى لنا – بغير السمسـمية – كمـا سمعتها من فرقة أولاد الأرض في مدينة السـويس، يقـول ونردُّ خلفه كل شطرة:

فات الكثير يا بلدنا.

ما بقاش إلا القليل.

إحنا ولادك يا مصر... وعنيكي السهرانين.

نصرك أصبح نشيدنا... واللي يعادينا مين.

فات الكتير يا بلدنا...

الهمة يا شبابنا..... القوة يا جنودنا.

نجيب فجرنا بسلاحنا... ونجيب النصر هدية لمصر.

نكتب عليه اساميناا...

بينا يا للابينا... نحرر أراضينا.

وعضم اخواتنا... نلموا... نلموا...

نسنوا نسنوا... ونعمل منه مدافع وندافع.

ونجيب النصر هدية لمصر وتحكي الدنيا علينا

بكـ ـرة يـا بلادنـ ـ ـ ـا ح نعوض اللي فات

ح نكتـ ـر المصانـ ـ ـع ونخضـ ـر المزارع

ونجيب النصر هدية لمصر تسعد بيـه أجيالنا

أغلب أجهزة الراديو ما عادت تعمل، بمضـي الوقـت فرغت شحنتها، وفشلت معها كل محاولات إعادتها إلى سابق حالها... بوضعها تحت أشعة الشمس فترة، بمحاولة وضعها في مياه تغلي ونادرا ما يتاح لنا ذلك. فكان علينا أن نخلـق من أحاديثنا ما يروح عنا بديلاً."عامر" يملك موهبة غريبة... لعلة يملكها من قبـل والفرصـة أتاحـت لـه أن نعرفهـا عنه أخيرا... باتت لعبته التي تسري عنه وعنا أحيانًا، هـي

مع الزمن شغله الشاغل، حساب الوقـت الفائـت وتـأريخ الحوادث وما كان يوما بيوم ومن الذاكرة يكررها حتى كـدنا نؤكد أنه يتعمد تسميعها لنا اختبارا لذاكرته.

الرجل أحال الزمن الذي أصبح بلا مقاتلة مع العـدو... أحاله إلى مقاتلة الزمن نفسه فنراه ونسمعه ينظر إلى السماء ويقول:"اليوم هو السبت منه"ويقول أيضـا..."والآن السـاعة الثالثة والنصف والخمس دقائق !"... اختبرنا تلك الموهبـة، تأكدنا من صدقها حتى أسميناه "بج عامر".

غالبا ما تبدأ المناقشات بيننا كسولة بطيئة كأننـا آثرنـا الاحتفاظ بما في رءوسنا حتى اقترح "عامر" علينا:

"كل ليلة نسمع من أحدنا أفضل الأيـام التـي عاشـها في كبريت" "وأفضل الأيـام التـي نجمـع عليهـا"، قلتهـا ووافقوني، فقال صيام:

"إذن هو يوم إغراق الزورق"... وافقنـاه، بـدأ يقـصُ وكأننا لسنا من صناعه قال:

"علمنا باقتراب إحدى الوحدات البحرية للعدو... احتلت إحدى الجزر الصغيرة في مياه القناة والقائمة أمـام حـدود وحدتنا في كبريت... يومها قال القائد:

-"يجب أن نتصرف على مسـتوى المسـئولية، يجـب إغراق الزورق مهما كان الثمن...

كل الأسلحة اشتركت ليغرق الزورق قبل أن تحتل القوة التي فيه أرض الجزيرة، فرحنا وهللنا....

أكيد نجحنا في تحدي الخوف والحصار داخل نفوسـنا". ما إن انتهى حتى علا صوت عامر:

"هل تعلمون لماذا وافقتم على هـذا اليـوم بالـذات ؟". لم يسمع ردا، تابع وحده:

"لأنه كان بلا خسائر... لا شهداء ولا مصابين فكانـت الفرحة به خالصة مخلصة". وكأنه ضغط على زناد الشجن؛ تذكرنا الرفاق الشهداء فردا فردا، لم نصمد كثيرا أمام الرغبة للبكاء فبكينا، بكينا ورفضنا تكرار اللعبة ثانية، إلا أن الرائد سعد المتابع لحوارنا تدخل في الحديث مجددا، وكأنـه وجـد في التذكر متعة قال:

"في بداية الحصار عرض العدو على العقيـد إبـراهيم خروج جميع أفراد الكتيبة بدون سلاح وتنضم إلـى القـوات المصرية المجاورة إلا أنه رفض بإصرار. عادوا وعرضوا عليه الخروج ثانية ولكن بكامل عتاد الكتيبة أسلحة وأفـراد،

وتنضم أيضا إلى أقرب قوة مصـرية... فـرفض أيضـا. لم ييأسوا، لثالث مرة عرضوا استعدادهم للحوار معه وقبول بعض شروطه حتى يخرج مع قواتـه، وتنسـحب الكتيبـة من الموقع إلى أي مكان يراه... لثالث مرة يرفض أيضا"... بعدها قال:

"لن ننسحب وسوف نستشهد على أرضـها"، صـدقت نبوءة الرجل؛ كان أول من استشهد بعدها وفي الهجوم التالي مباشرة !".

بمضي الوقت بعض أفراد الكتيبة لم يعـودوا يشـكون من أعراض مرضـية بـذاتها حتـى إن الجنـدي عيسـى (مسئول جهاز الاتصال) الذي ضرب فـي آخـر هجـوم مباشر، بدأ يتحسن يوما بعد يوم، أذهلتني سرعة استجابة هذا الرجل للشفاء.

قلت له في حينها:"يبدو أن للحياة إرادة يا عيسى وأنـت تملكها، فالتأمت عظامك". أحدهم سألني تفسيرا أكثر قلت:

"ربما الآلام الكبيرة تنسـينا بعـض الآلام الصـغيرة". ما أن قلتها قفز إلى رأسي سؤال لم أبح به.. وقـد تـذكرت أخي فتحي المجند بالجيش الثاني وأعلم أنه يقيم في سرابيوم

وهي ضمن منطقة الثغرة، وأخي الأصغر أسامة طالب الكلية الجوية.... كلاهما ومعا... ماذا يفعلان الآن، بل ماذا تفعـل أمي... ربنا معها ؟!!

ليلتها حاولت النوم... فشلت كما كنت أفشل في ليـالي سابقة؛ ربما لإحساسي أن اقتحام الوحدة لو تم سوف يكـون أكيدا خلال ساعات الليل ووسط الظلام.

ذات صـباح اجتمعـوا حـولي... أنـدريا وصـيام ومن خلفهما صامتًا جابر، أخيرا فهمت سرَ المـؤامرة التـي تحاك من حولي، ألحوا علـيَ أن أجـري لجـابر عمليـة الطهارة !

قلت ببساطة وقناعة:

"ليس وقته ولا مكانه"..."بل هو زمانه ومكانه... مـاذا تفعل نراك بلا عمـل ؟!"..."والحـرب، افترضـوا معـي أن العدو...".

قاطعوني:"لن نقتنع ولا تحاول معنا"... رميت نظرة إلى الصديق جابر... وجدته محتقن البشرة كما الكبد، لامع وقـد تندى بالعرق بالرغم من أننا مازلنا في أخريات أيام الشـتاء الباردة. أجريت العملية خلال ثلث الساعة إلا أنه ظل عاجزا

عن الحركة لثلاثة أيام. كنت خلالها قلقًا بالفعل حتى أني لـم أسمح بزيارته أو الدخول عليه.

حتى إذا ما خرج عليهم مشافى معافى. قصصت قصته وضحكنا كثيرا ليلتها وهم يزفونه ويزغـردون لـه... قبـل زفافه الحقيقي... لو كُتِب لنا وله النجاة وخرجنا من الحصار أحياء !! اكتملت فرحتنا فور قدوم القائد إلينا ليقول لنا:

"لقد شفي الذئب"... عرفنا الخبر بعد أن تسلل الضـابط سامي مع أحد الجنود عبر القوات المحاصـرة إلـى أقـرب وحدات الجيش الثالث الميـداني المصـري. وهمـا أيضـا من أحضرا معهما إشارة رسمية من قيادة الجيش إلى قائـد الوحدة أخبرنا بمضمونها في الصباح التالي، قرأها:

(تفيد الإشارة أن مساعد وزير الحربية وقائـد الجـيش الثالث سوف يصلان إلى الوحدة خلال هذا النهار).

"كيف"؟!

"لماذا"؟ ؟!!

"متى بالضبط"؟ ؟!!

ردّ على تساؤلنا في بساطة لا تتناسب مـع انفعالاتنـا الدهشة:

"اليوم سوف ينتهـي الحصـار اعتبـارا مـن سـاعة حضورهم". انشغل ربيـع فـي حذائـه، أخـرج مسـمارا منه بأسنانه... حفر هذه الجملة:"بعد مضي ١٣٤ يوما انتهى الحصار في كبريت.... الضفة الشرقية لقناة السويس".

في الأول من مارس ١٩٧٤م.

* * *